الباب الثالث

الخروج على الحكام
عبر وعظات

بين يدى الباب

مقدمة

التاريخ مخزن العبر، ونهر بالعظات زاخر، وكتاب خالد محفور، نقشت أحداثه على جدار الزمن، إنه قدر الله النافذ فى خلقه، وتدبيره للممالك والدول.

وهو الصورة الظاهرة لقضائه سبحانه، يتأمل فيها الناظرون، ويتفحص معالمها النابهون، ويستلهم حكمها العقلاء والمفكرون، ويغوص فى أعماقها الباحثون.

فالتاريخ يرجع إليه كل متشوق إلى مستقبل أفضل من حاضره، وغد أكثر إشراقًا من يومه .. ويبحث فيه كل من يرجو سلامة الحاضر الذى يحياه، وأمان المستقبل الذى يتمناه .. والتوفيق فى سعيه وبناء أمته.

إن التاريخ لهو خير معلم يتواضع له المتعلمون، يتلقون منه الدروس، ويستخرجون منه الكنوز، ويتبصرون به خطوهم، ويرسمون على نوره طريقهم، ويحددون على هديه أهدافهم، ويرتبون وفق سننه أولوياتهم .. ويزنون بميزانه أعمالهم، ويقيسون على أحداثه وقائع حياتهم، وطوارق زمانهم.

وهل هناك حكيم أفضل من التاريخ نسأله؟!

أو مربٍ أحسن من قدر الله النافذ فى خلقه نتربى بين يديه، ونصغى إلى دروسه ومواعظه؟!

إذا قلنا إن من وعى التاريخ فى صدره أضاف أعمارًا إلى عمره .. فإننا نقول أيضًا: إن من لم يتعلم من التاريخ، أو فاتته دروس الزمان فقد فاتته الحياة، وقصر عمره، وضاقت نظرته، وقلت أو انعدمت خبرته، وعاش حياته يومًا بيوم .. وعمل بنظرية التجربة والخطأ فهلك وأهلك.

إن الواقف على دروس التاريخ والمستفيد من أحداثه قد امتدت جذوره فى أعماق الزمن، حتى إنه ليقف مع آدم عليه السلام فى تجربته، فيحذر مكر الماكرين، فلقد كاد له إبليس اللعين: «وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين».

ويعيش مع نوح عليه السلام، وقد ظل ألف سنة يكابد قومه،يعدد معهم البدائل، ويجرب معهم الوسائل ليلاً ونهارًا، سرًا وجهرًا، يحبب الخلق إلى الحق، ويزين الدين للناس، ويقابل الإساءة

بالإحسان، وفى النهاية: «وما آمن معه إلاَّ قليل».

إن دارس التاريخ يجالس موسى عليه السلام، وهو يسوس بنى إسرائيل أصعب الأمم قيادًا وأكثرهم تمردًا وعنادًا، فيتعلم كيف يصبر كصبره، ليجد مكانته بعد ذلك عند الله وعند الناس «فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا».

إنه يصحب محمدًا ﷺ يتعلم كيف يربى أصحابه ويبلغ دعوته، فيأخذ منه حكمته، ويسدل على نفسه رأفته ورحمته حتى فى أشد المواقف وأحلك الظروف ليكون من أهل «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».

إن دارس التاريخ يعيش مع أبى بكر - رضى الله عنه - ليرى أدبه وشجاعته وتواضعه وسياسته.

ويرى عمر - رضى الله عنه - فى جرأته وتنظيمه شئون دولته، وسهره على رعاياه وأهل ذمته. ونشره لرسالة الإسلام السمحة وقيامه بأعباء أمته.

إن دارس التاريخ يعيش مع هؤلاء الأنبياء والخلفاء يرى كيف قادوا شعوبهم، وحافظوا على مصالح أقوامهم، وأخذوا بيد الناس قبل أن يؤاخذوهم، وعلموهم، ولم يكفروهم.

إنه يغوص فى عقول المصلحين فى كل عصر أو قطر أو دين، فيرى فيهم عقلاء نابغين، وحكماء موفقين، ورحماء متواضعين، فيفعل فعلهم، ويسلك دربهم، ويستلهم طريقهم.

إن حياة كل إنسان تتسع على قدر معرفته ودراسته للتاريخ، ووقوفه على دروسه، وعمله بعبره وعظاته.

إن الواقف مع التاريخ يصير فى غده قدوةً وإمامًا، يأتى الناس من بعده يتدارسون سيرته، ويفيدون من تجاربه، ويهتدون بحكمته، فيكون بذلك قد سبق زمانه بقرون، وامتدت حياته أجيالاً، ووسع ذهنه الزمان أوله وآخره، وحوى عقله المكان مدائنه وحواضره، فيعيش بذلك موفقًا مسددًا.

لقد ذكر ابن الأثير فوائد عدة لدراسة التاريخ فننقل منها فائدتين كم نحن بحاجة للتأمل فيهما:

(١) «لا يخفى أن الإنسان يحب البقاء، ويؤثر أن يكون فى زمرة الأحياء فإذا ما طالع أخبار الماضين، وحوادث المتقدمين فكأنه عاصرها»..

ألسنا قد قلنا إن دراسة التاريخ تطيل الأعمار وتزيد من سعة الحياة، وتنمى الأفكار وتغذى العقول!!

(٢) «ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث، وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلاّ تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلا».

وصدق ابن الأثير فى هذا المعنى العظيم .. وقديمًا قال البعض: «إن التاريخ يعيد نفسه» أو «ما أشبه الليلة بالبارحة»..

وذلك لأن السنن الكونية التى تحكم الحياة واحدة، وسنن الله لا تتبدل ولا تتغير.. «ولن تجد لسنة الله تبديلا».

«إن ما يمر بك اليوم سيتكرر مثله أو شبيهه بعد سنوات».

وكما قال الإمام ابن خلدون فى مقدمته : «اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الإقتداء فى ذلك لمن يرومه[1] أحوال الدين والدنيا».

إن كثيرًا من المصلحين يخفقون فى سعيهم، ويحيدون عن أهدافهم، ويقعدون عن طريقهم، لأنهم لم يستوعبوا دروس التاريخ ولم يعملوا بها، ولم يستفيدوا مما سبقهم من تجارب، فهم لم يملكوا العقلية التحليلية التى تفهم الحاضر على نور من الماضى، وتستشرف بذلك المستقبل.

فقاموا بأنفسهم يجربون، بعد ما نسوا أن من اعتبر بغيره فهو حكيم، ومن قامر بنفسه فهو مقامر، وهؤلاء كثيرًا ما يخطئون.

إن من لم يفهم الدنيا التى يحيا فيها عاش لعبتها ووقع فريستها، وصار ضحيتها، وما التاريخ إلاّ امتداد زمنى بين الأمس واليوم والغد .. ومن لم يتدبر التاريخ فليس له عمق استراتيجى يتحرك فيه، وليس له نور يهديه ولا درع يحميه.

---

(١) يرومه : يريده ويطلبه

وإذا كان التاريخ هو المعلم البصير، والناصح الأمين، والصاحب الذى لا يخدع صاحبه، فإن من أعظم فتراته تلك الحقب التى عاش فيها سلفنا الصالح، وتلك القرون التى عمرها خير الأجيال .. ولم لا .. وهم أعلم الخلق بالحق، وأحراهم بالصدق، وألزمهم للصواب، وأحرصهم على رضا الرب؟

* وهل نجد أعظم من سادتنا العظماء، وسلفنا الأجلاء، نقف أمامهم، ونتدبر سيرهم؟

* هل هناك معلم أهدى من هؤلاء؟!

* هل نجد أرشد عقولاً، وأزكى نفوسًا، وأصفي قلوبًا، وأنقى أفئدة، وأحكم رأيًا من هؤلاء؟

* هل نجد أفضل من قوم عاشوا أطهارًا وماتوا أبرارًا؟

* هل عرف التاريخ مثل الحسين؟! أو عبد الله بن الزبير؟! أو الحسن بن على؟! أو عبد الله بن عمر؟! أو حبر الأمة ابن عباس؟! رضى الله عنهم أجمعين.

* هل يوجد من التابعين أحد يطاول سعيد بن جبير، أو الحسن البصرى أو الشعبى.

إننا نقف على هذه الصفحات من تاريخ سلفنا الصالح، ونحن نحبهم الحب الكبير، ونجلهم الإجلال العظيم، ونثنى عليهم بالفضل والجميل .. كل ذلك وأكثر منه، ولن نوفى لهم قدرهم وحقهم.

كفى سلفنا الأبرار الذين قاموا منهم أو قعدوا أنهم عملوا لله وفى سبيل الله، فإذا أصاب أحدهم الحق فهذا رأيه وتلك طبيعته وعادته.. وإن جانبه الصواب فليست سوى هفوة وزلة. لا ننسى بها فضله ومكانته، وكيف ننسى أن الماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث؟!.

إن كل مجتهد من سلفنا الصالح مأجور ومشكور، إن أصاب الحق فله أجران. وإن كانت الأخرى فله أجر الاجتهاد، فإنما كان الخطأ عن اجتهاد لا عن هوى وعناد.

لقد وقفنا فى هذا الباب مع نفر من أعلام السلف الصالح ورأينا خروجهم على الحكومات وما ترتب على ذلك من نتائج وآثار، أذهبت الدين وأفسدت وأضاعت الحقوق وأهدرت الكرامات، وتكاثرت بها المظالم.

وكم تمنينا أن نستعرض تاريخنا المعاصر، لنرى ماذا جنت الحركات الإسلامية من جراء صدامها المسلح مع الحكومات.

* كنا نود الوقوف على أطلال حماة وقدخرجت على الحكومة فى سوريا.

* كم تمنينا أن نستعرض سويًا نهاية جهيمان العتيبى ورفاقه، وقد اقتحموا المسجد الحرام بالسلاح وصناديق الذخيرة حتى تقصفت المآذن، وتصدع البنيان.

* كما تمنينا أن نخاطب أكثر من مائة ألف قتيل أزهقت أرواحهم بسبب القتال فى الجزائر.

ونحن تواقون للحديث إلى الآلاف من الشاب الذين دخلوا السجون أو قتلوا أو أعدموا، ومئات الأسر التى هدمت .. والأطفال الذين يتموا من الجانبين بسبب قتال التسعينيات فى مصر.

* كنا نود الحديث إلى الحركة الإسلامية فى العهد الملكى، وفى أوائل عهد الثورة، وفي الفنية العسكرية، ومقتل الشيخ الذهبى.

* كنا نود الحديث إلى كل هؤلاء .. ولكن حال دون رغبتنا أمران:

الأمر الأول: خشية الإطالة والملل ولئلا يزداد حجم الكتاب عن الحجم المعقول فيؤدى إلى ملل القارئ والعزوف عن قراءته.

الأمر الثانى: أن الكتابة عن الحركات المعاصرة، وما مر بها من مواقف يحتاج إلى كثير من المراجع مما لا يتوفر بين أيدينا الآن ونحن فى مثل هذه الظروف، ولذا أرجأنا الكلام عن هذا البحث المعاصر إلى كتاب قادم إن شاء الله،عسى أن تذلل العقبات أمامنا، أو أن تتحسن ظروفنا، حتى لانقول بغير علم، أو نحكم على أحد بظلم، والله يقول: «وإذا قلتم فاعدلوا»

نحن نعرف أن أكثر الذين خرجوا على الحكومات قديمًا أو حديثًا، إنما خرجوا لإحقاق بعض الحقوق، ورفع بعض المظالم، ولكن الملاحظ أن الحقوق لم تعد، والمظالم لم ترفع .. فلا الحقوق عادت لأصحابها، ولا عاد هؤلاء الأصحاب إلى دعوتهم ولا إلى مساجدهم، بل لم يعودوا إلى بيوتهم وأسرهم، لكنهم أعدموا أو شردوا أو سجنوا.

لقد استعرضنا فى هذا الباب تاريخ فترة طويلة للخروج على الحكام، وسوف نترك القارىء يحكم على النتائج فى نهاية هذا الباب.

سوف نتركه يحكم على هذه الحروب، هل عادت بما فيه صالح الإسلام والمسلمين وأوطان الإسلام؟! أم أنها انتهت بخلاف ذلك؟

هل جعلت هذه الخروجات المسلحة الدين أكثر منعة وأشد قوة؟ أم تركته مثخنًا فى جراحه، مهيضًا جناحه، تحرقه اللوعة على أبنائه، لا يقوى على الدفاع عن نفسه فضلا عن منازلة الآخرين من أعدائه الحقيقيين؟!

سوف نترك هذا الباب أمام كل محب لدينه، حريص على مصالح أمته .. ينظر، هل هذا القتال المسلح قدم لهذا المحبوب الغالى ما يستحقه من نصرة لشريعته وبلاغ لدعوته وحمل لرسالته؟!

أم أن هذا الاقتتال قد ضيق عليه الخناق، وضرب عليه الحصار حتى ليصعب عليه التقاط أنفاسه التى يحافظ بها على حياته .. مجرد الحياة فضلا عن الحركة؟!

سوف نترك هذا الباب أمام كل العاملين من أبناء الحركات الإسلامية الذين يبغون للدين عزًا وللإسلام العظيم نصرًا .. ونسألهم : هل حقق القتال مع الحكومات لهم ما أرادوا؟!

سوف نترك الباب أمام كل هؤلاء .. ونحن واثقون أن كل واحد منهم سيخرج فى نهايته بما خرجنا به نحن .. من أن القتال المسلح بين المسلمين بعضهم البعض إنما يعود بأعظم الخسائر على الإسلام وعلى المسلمين وعلى بلاد الإسلام جميعها.

إن هذا القتال هو من أعظم الأسباب لتدخل الدول الكبرى فى شئون المسلمين والعبث بمقدراتها:

* هل نسيتم مأساة دارفور بالسودان وموقف الدول العظمى منها؟!

* هل نسيتم القانون الأمريكى لحماية الأقليات الدينية والعرقية فى بلاد المسلمين؟!

* هل نسيتم محاولات التدخل السافر فى أخلاقنا وثقافتنا ودور العلم والعبادة فى بلادنا؟!

* هل نسيتم القرار الأمريكى بتوجيه الضربات الإستباقية ضد أى دولة أو جماعة تخرج عن طوعها، أو تصادم مصالحها، كل ذلك تحت مسمى حرب الإرهاب؟!

* والآن .. وبعد هذا التقديم ..

فلنقلب صفحات من تاريخ سلفنا الصالح، لنرى كيف فعل الخروج المسلح على الحكومات فى زمانهم، وهم أقرب عهدًا بالنبوة والرسالة.

* فكيف بالخروج على الحكومات فى زماننا؟!

* ولا يفوتنا أن نذكر:

ليس فى حكومتنا اليوم من هو فى ظلم الحجاج وبغيه وطغيانه وبطشه .. لقد فاق الحجاج فى جبروته كل وصف، وتجاوز كل حد، وانتهك كل حرمة .. ورغم ذلك، قال أنس - رضى الله عنه - لما سأله الناس عن ظلم الحجاج .. وما أعظم ما قال:

«اصبروا فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه» .. سمعته من نبيكم ﷺ(١).

أليست حكومات زماننا أولى بالصبر عليها وهى لم تفعل شيئًا يذكر إلى جانب ما فعله الحجاج؟!

(١) رواه البخارى عن أنس.

أولاً .. خروج الحسين بن على «رضى الله عنهما»*.

أخذت البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية - رضى الله عنه - وكان الحسين - رضى الله عنه - ممن امتنع عن مبايعته هو وابن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وابن عمر، وابن عباس رضى الله عنهم - ثم مات ابن أبى بكر ولم يبايع .. وبعدما توفى معاوية عام ٦٠ هـ .. وبويع ليزيد، بايعه ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما.

- ورفض الحسين وابن الزبير رضى الله عنهما أن يبايعا له.. وخرجا من المدينة إلى مكة ، فأقاما بها فرارًا من بيعة يزيد .. وجعل الناس يفدون على الحسين رضى الله عنه ويسمعون كلامه.

وفى مكة جاءه الرسل من العراق يحملون الكتب يدعونه فيها للخروج إليهم .. وجعلوا يستحثونه فى القدوم عليهم ليبايعوه بدلاً من يزيد .. قالوا: إنهم لم يبايعوا أحدًا إلى الآن وإنما ينتظرون قدومه عليهم.

وأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل ليكشف له حقيقة الأمر .. فإن كان كما قالوا، بعث مسلم إليه ليركب فى أهله وذويه ويأتى الكوفة ليظفر بمن يعاديه.

- ولما نزل مسلم بن عقيل إلى الكوفة .. وتسامع الناس بوجوده، جاءوه مبايعين على إمرة الحسين رضى الله عنه وحلفوا لينصرنه بأنفسهم وأموالهم .. وكثر الناس حتى بايعه اثنا عشر ألف رجل، وقيل ثمانية عشر ألفاً .. فبعث مسلم إلى الحسين رضى الله عنه يدعوه للقدوم إلى الكوفة، فقد تمهدت له البيعة وآلت إليه الأمور.

وأرسل عبيد الله بن زياد دعاته يخذلون الناس عن مسلم بن عقيل .. حتى انفض عنه الناس .. وبقى وحده لا يجد من يدله على الطريق ولا من يؤنسه أو يؤويه إلى منزله .. حتى طرق أحد

---

* البداية والنهاية .. ابن كثير (٨ / ٥٢٢:٥٧٥) بتصرف

وتاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى د. عبدالشافى محمد عبد اللطيف ص ٤٧٢ - ٤٧٨ بتصرف

البيوتات يختبئ فيه، ونما خبره إلى ابن زياد، فأرسل إليه من يحاصره، وظلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموه.

وأعطاه أحدهم الأمان فاستسلم له .. فجردوه من سيفه وأركبوه على بغلة، فبكى مسلم وعرف أنه مقتول .. فقال نفرٌ من حوله: إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكى إذا نزل به هذا.

فقال مسلم: لست أبكى على نفسى، ولكن أبكى الحسين وآل الحسين رضى الله عنه. إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة.

- وصل مسلم بن عقيل إلى قصر ابن زياد، مخضبًا بالدماء، مثخنًا بالجراح، وفى غاية العطش، وأراد أن يشرب فمنع من الماء، وقيل له والله لا تشرب منها حتى تشرب من الحميم .. فقال للرجل من أنت؟.. قال: أنا من عرف الحق إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذا عصيت .. ثم جيء له بالماء فجعل يشرب ولا يستسيغه من كثرة الدماء التى تعلوه، فلما شرب سقطت ثناياه.

وأدخل على ابن زياد، فاتهمه ابن زياد بشرب الخمر وتفريق الكلمة، ثم قال له: يا فاسق إن نفسك تمنيك بما حال الله بينك وبينه، وجعل ابن زياد يشتم الحسين وعليًا - رضى الله عنهما - ثم أمر بمسلم بن عقيل فضربت عنقه، وألقى بجسده من فوق القصر .. وبعث برأسه إلى يزيد بن معاوية.

وكان مسلم بن عقيل قد كتب إلى الحسين رضى الله عنه قبل أن يقتل، يقول له معرفًا بما جرى معه من تخلى الناس عنه، فكتب يقول: ارجع بأهلك ، ولا يغرنك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى، وليس لكاذب رأى .. ولكن الحسين رضى الله عنه لم يصدق الرسول، وقال : كل ماحم الإله واقع.

موقف الصحابة .. «رضوان الله عليهم» من خروج الإمام الحسين رضى الله عنه

وما أن علم الناس برغبة الحسين - رضى الله عنه - فى الخروج .. إلا وأتاه كبار الصحابة ينصحون له ألا يخرج، لئلا يعرض نفسه وأهل بيته للقتل دونما مصلحة أو فائدة.

فهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - جاءه فقال له: يا ابن عم .. إنَّ أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم .. أقم فى هذا البلد حتى ينفى[1] أهل العراق عدوهم ثم أقدم عليهم .. فإن كنت ولا بد سائرًا فلا تسر بأولادك ونسائك .. فوالله إنى لأخاف أن تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه.

ثم قال: فوالذى لا إله إلا هو، لو أعلم أنَّك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعتنى وأقمت، لفعلت ذلك.

بل ذكر له ابن عباس أنه إن خرج فقد خرج للفتنة .. ولا يأمن تقلب الناس عليه.

فقال: ... وإن كان أميرهم حى وهو مقيم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبى بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال .. ولا آمن عليك أن يستنفروا عليك الناس، ويقلبوا قلوبهم عليك .. فيكون الذى دعاك أشد الناس عليك.

أما عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - صاحب العزمات القوية والهمة العالية .. لما بلغه خبر خروج الحسين رضى الله عنه لحقه على مسيرة ثلاث ليال .. فقال: أين تريد؟ .. قال: العراق .. فقال ابن عمر موضحًا له أن الله لن يجمع لهم النبوة والملك .. وأنها ما زويت عنهم إلا لخيرهم.

فقال: .. إن جبريل أتى النبى ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ولم يرد الدنيا .. وإنك بضعة من رسول الله .. والله ما يليها أحد منكم أبدًا .. وما صرفها عنكم إلا للذى هو خير لكم .. فأبى أن يرجع، فاعتنقه وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل.

---

(١) أى يعزل

وقال مبينًا سبب رفضه لخروج الحسين - رضى الله عنه- غلبنا حسين بن على بالخروج، ولعمرى لقد رأى فى أبيه وأخيه عبرة، فرأى من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغى له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل فى صالح ما دخل فيه الناس فإن الجماعة خير.

.. وقال له أبو سعيد الخدرى .. رضى الله عنه : اتق الله فى نفسك والزم بيتك .. ولا تخرج على إمامك..

.. أما أبو واقد الليثى - رضى الله عنه - فقد رد على تأويل الحسين رضى الله عنه بالخروج ووضح له أنه خرج فى غير وجه صحيح، بل فى غير مصلحة، ولكنه أبى القعود.

فقال أبو واقد: بلغنى خروج الحسين رضى الله عنه فأدركته فناشدته الله ألا يخرج، فإنه يخرج فى غير وجه خروج، إنما خرج يقتل نفسه، فقال: لا أرجع.

وإذا كان ابن عمر وأبو سعيد وأبو واقد قد نظروا إلى أن الحسين إنما يقتل نفسه بخروجه على يزيد .. فإن جابرًا - رضى الله عنه - نظر للأمر من زاوية أخرى .. وهى تفرق الأمة ، واقتتال بعضهما ببعض مما يذهب ريحها، ويفت فى عضدها ، ويوهن قوتها.

فقال جابر : كلمت حسينًا فقلت: اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض.

وفى القتال يتسلط فريق على فريق .. وتستعلى أمة على أمة .. ولا يجوز لآل البيت أن ينزلوا بأنفسهم منازل الهون والقهر.

وقد قال عبد الله بن مطيع للحسين ذلك بوضوح، لعله أن يرجع عن فكرة خروجه تلك .. قال ابن مطيع للحسين - رضى الله عنه: فوالله لئن قتلك هؤلاء القوم يتخذونا عبيدًا وخولا.

.. ولكن الحسين - رضى الله عنه - صمم على الخروج وأرسل إلى بنى عبد المطلب بالمدينة يستحثهم على الخروج معه .. فجاءه محمد بن الحنفية بمكة، وقال له: إن الخروج ليس له برأى، فأبى الحسين - رضى الله عنه - فحبس ابن الحنفية ولده فلم يخرجوا معه حتى وجد الحسين رضى الله عنه - فى نفسه، وقال له: ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه.

.. فقال له ابن الحنفية قولة الحكيم العاقل الذى يزن الأمور بمصالحها ومفاسدها ومآلاتها، قال: وما حاجتى أن تصاب ويصابون معك وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم.

.. كل ذلك والحسين - رضى الله عنه - مصر على الخروج إلى الكوفة .. يتولى إمارتها عوضًا عن يزيد .. ولم يفكر طويلاً فيما قاله عبد الله بن جعفر فى كتاب أرسل به إليه جاء فيه: .. إنك إن هلكت اليوم طفىء نور الإسلام ، فإنك علم المهتدين، ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير.

- وقد حاول نفر من المسلمين منع الحسين بالقوة من الخروج حتى وقع بينهم ضرب بالعصى والسياط، غير أنه غلبهم ومضى ..

فلقد أرسل إليه عمرو بن سعد والى مكة رسله فاعترضوه، وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط والعصى .. ثم إن حسينًا وأصحابه امتنعوا منهم امتناعًا قويًا، ومضى الحسين رضى الله عنه على وجهه، فنادوه: يا حسين .. ألا تتقى الله، تخرج عن الجماعة وتفرق بين الأمة بعد اجتماع الكلمة، ولكن الحسين رضى الله عنه تأول الآية:

«لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون».

نعم كل إنسان له عمله، لكن مادام فى حدود نفسه، ما لم يتعد أثره إلى غيره، أما إن كان هذا العمل يمتد أثره إلى الأمة بأسرها، فيقتل خيارها، وتنتهك حرماتها، وتداس مقدساتها، فهنا لا يقول: «لى عملى ولكم عملكم» لأن المسلمين جميعًا يتحملون آثار ذلك العمل، وإنما نقول له : «علينا عملك» فحق علينا نصحك ومنعك.

ولعل قائلا يقول: إنما خرج الحسين رضى الله عنه خوفًا على نفسه وأهل بيته .. ولكنا نسوق ذلك الأمان الذى أعطاه له نائب الحرمين، فقال له:

«إنى أعيذك من الشقاق، فإنك إن كنت خائفًا، فأقبل إلىَّ، فلك عندى الأمان والبر والصلة».

بل إن يزيد بن معاوية أرسل إلى ابن عباس بخبر الحسين وقال له: «أنت كبير أهل بيتك والمنظور إليه فاكففه عن السعى فى الفرقة».

فقد حرص يزيد على منعه من الخروج حتى إنه ليتوسل إليه بابن عباس - رضى الله عنه - ولكنه أبى ذلك كله .. ومضى فى طريقه حيث لقيه الفرزدق، فسأله الحسين رضى الله عنه عن العراق، فقال: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية».

- وبلغ الحسين خبر مقتل مسلم بن عقيل، فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» . ثم قال: لا خير فى العيش بعده.

وثار إخوة مسلم، وقالوا : والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا، ونذوق ما ذاق أخونا، وزحف الجميع إلى مصارعهم.

واعترف الحسين رضى الله عنه أنه إنما بنى نظريته على خيال، ولم ينزل بها إلى الواقع، وقد نصحه الناس وبينوا له حقيقة أهل العراق حتى إن أباه عليا - رضى الله عنه - قال فيهم : «والله لقد مللتهم وأبغضتهم، وملونى وأبغضونى، وما يكون منهم وفاء قط، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب .. والله ما لهم ثبات ولا عزم على أمر، ولا صبر على السيف».

ولقد حدثه أبو سعيد بذلك، لكنه - رضى الله عنه - لم يسمع ، وها هو الآن يقر بما قال أبو سعيد - رضى الله عنه - فيقول الحسين رضى الله عنه لأتباعه:

«خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف عن غير حرج» .. فتفرق الناس عنه حتى بقى معه أصحابه الذين جاءوا معه من مكة.

بل إنه اعترف الآن أن الذين دعوه للخروج إليهم هم قاتلوه .. فلما نزل وضرب الخيام سأله رجل، ما الذى أنزلك هذه البلاد؟

قال: «هذه كتب أهل الكوفة إلىَّ ولا أراهم إلا قاتلى».

.. الحسين فى ساحة القتال ..

نزل الحسين رضى الله عنه وضرب خيامه، وحفر حولها الخنادق .. وأرسل إليه عبيد الله بن زياد جيشًا قوامه ألف رجل، وأمر عليهم الحر بن يزيد، ووجههم لقتال الحسين .. وقال له الحر: «إنا لا ندرى ما هذه الكتب ولا من كتبها» .. فأحضر الحسين خرجين مملؤين كتبًا، فنثرها بين يديه، وأراد بعدها أن يرتحل، فأبى عليه الحر أن يرحل .. ثم قدم عمر بن سعد على رأس جيش جرار لحصار الحسين وقتاله، ودارت بينهما المحاورات .. وطلب الحسين رضى الله عنه منه أن يعطيه إحدى ثلاث:

(١) أن يتركه يرجع كما جاء.

(٢) أو يسيره إلى يزيد فيضع يده فى يده.

(٣) أو أن يرسله لقتال الترك.

وأرسل عمر بن سعد بذلك إلى عبيد الله بن زياد، فأبى إلا أن يسلم له وينزل على حكمه، فأبى الحسين رضى الله عنه أن يعطيهم يده إعطاء الذليل، أو يقر لهم إقرار العبيد كما قال.

ودخل خيمته وتطيب وخرج للقتال. يخطو إلى حتفه .. فبكت حوله النساء، وأقبل جنود عمر بن سعيد يحولون بين الحسين - رضى الله عنه - وبين الماء .. ثم نادهم الحسين رضى الله عنه : ألم تكتبوا إلىَّ أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجنده؟ فقالوا له لم نفعل.

ورماه رجل بسهم بين كتفيه، ورجع الحسين إلى مصافه وهم قريب من مائة رجل .. وتوعد عمر بن سعد بقتال الحسين رضى الله عنه. فقال: تسقط منه الرؤوس وتطيح الأيدى .. وقال الحسين رضى الله عنه : «أيها الناس ذرونى أرجع إلى مأمنى من الأرض». فقالوا: وما يمنعك أن تنزل على حكم بنى عمك؟ .. ثم قال الحسين رضى الله عنه: اتطلبونى بقتيل لكم قتلته؟. أو مال لكم أكلته؟ أو بقصاصة من جراحة؟ فأخذوا لا يكلمونه..

وسب الناس الحسين رضى الله عنه واثنوا على ابن زياد، ورمى عمر بن سعد بسهم وترامى الناس، ثم تبارزوا .. وهم جيش ابن زياد بإحراق الخيام على من فيها من النساء، فأقبلن يصرخن .. وقال له رجل: أبشر يا حسين بالثأر .. ولما أراد الصلاة، قال له آخر: إنها لا تقبل منكم.

ومكث الحسين رضى الله عنه نهارًا طويلاً وحده، لا يأتى إليه أحد إلا رجع عنه لا يحب أن يلى قتله .. حتى جاء ذلك الشقى فضرب الحسين رضى الله عنه على رأسه بالسيف فأدمى رأسه .. وقتل القاسم بن الحسن بن على بين يديه .. ثم أدركه التعب فجلس وفى حجره عبد الله بن الحسين، فجعل يقبله ويودعه .. فرماه رجل بسهم فذبحه بين يديه.

وعملت السيوف فى آل بيت النبى واشتد على الحسين رضى الله عنه العطش، فحاول أن يشرب من ماء الفرات، فحالوا بينه وبين ذلك .. فخلص إلى النهر ليشرب شربة منه فرماه رجل بسهم فى حنكه، ففار الدم وسال يخالط ماء الفرات.

ووقف الحسين رضى الله عنه وحيدًا لا يجد من يذود عنه، وأحاط به جيش ابن زياد وضربه رجل على كتفه اليسرى ثم على عاتقه .. ثم انصرفوا عنه وهو يكبو وينوء .. ودنا عمر بن سعد بن الحسين رضى الله عنه، فقالت زينب: يا عمر، يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر، فبكى وصرف وجهه عنها.

وطعنه رجل بالرمح ثم نزل فأخذ رأسه .. وقتل الحسين وآل الحسين رضى الله عنهم ولم يبق إلا صبى صغير هو على زين العابدين، هموا بقتله فتوسل إليهم أن يتركوه فى صحبة النساء لأمانهن.. ففعلوا.

ثم إن ابن زياد أمر بنساء الحسين رضى الله عنه وصبيانه وبناته فجهزن إلى يزيد.

وأراد بعض الناس أن يسترق فاطمة بنت على فانتهرته زينب بنت علي - رضى الله عنهم أجمعين-

.. مقدمات بين يدى العبر والعظات

وبعد هذا العرض الطويل لصفة خروج الحسين رضى الله عنه وكيف كانت نهايتها الأليمة المحزنة، وقبل أن نستخلص ما فى الأحداث من دروس وعبر نستضىء بها فى حاضرنا ونرسم بها مستقبلنا .. لابد لنا من عدة مقدمات نطرحها بين يدى القارئ البصير، دفعًا للتهم ودرءًا للظنون، وبيانًا للمواقف وأول هذه المقدمات:

أولاً: نحن نعلم يقينا أن الحسين - رضى الله عنه - «هو سيد شباب أهل الجنة»[1] وذلك بنص حديث الرسول ﷺ .. كما نعلم أنه - رضى الله عنه - من آل بيت النبوة .. وهم أطهار أخيار، ولقد حدث القرآن بذلك فقال :«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا» .. نحن نعلم ذلك جيدًا، كما نعلم أن الحسين - رضى الله عنه - أفضل من يزيد بن معاوية ليس فى ذلك شك..

وبناءً على ما سبق فإن ما سنذكره من دروس نستخلصها من هذا الحدث ليس للنيل من الحسين وآل بيته، أو انتقاصًا من قدرهم .. ولا تصغيرًا لمكانته رضى الله عنه.

كما أن هذه الدروس والعبر ليست مدحًا فى يزيد، ولا ثناءً على ابن زياد .. كما أنها ليست تزلفاً لأحد منهما، ولا نفاقًا لآخر .. فالجميع قد مات وكلهم أفضى إلى ما قدم، وأمره إلى الله تعالى.

ولكننا نقف مع هذا الحدث الفظيع ، وهذا المصاب الجلل نتبين الدروس والعبر، ونقيس المصالح والمفاسد المتعلقة به .. وهل هذا الخروج كان فى مصلحة الإسلام والمسلمين؟ .. أم أنه كان خلاف ذلك؟

هذه هى المقدمة الأولى رأينا ضرورة تقديمها بين يدى الحديث

أما المقدمة الثانية:

ثانيًا: هذا الرأى الذى نراه والقول الذى نقوله ليس بدعًا من القول، ولم ننفرد به دون غيرنا .. بل هو رأى الأمة قاطبة لم نعرف له مخالفًا إلا الحسين - رضى الله عنه - بل إنَّ كل الصحابة

(١)أخرجه الترمذى عن يزيد بن أبى زياد، وقال: حسن صحيح

الكبار خالفوا الحسين رضى الله عنه فى اجتهاده، وعلى رأسهم عبد الله بن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدرى، وأبو واقد الليثى، وكذلك عبد الله بن جعفر، ومحمد بن الحنفية .. كل هؤلاء خالفوا الحسين رضى الله عنه فى اجتهاده بالخروج، وبينوا أنه كان اجتهادًا خاطئًا .. وأنه ليس حكمًا شرعيًا بل هو اجتهاد شخصى جانبه فيه الصواب.

وإن كان ذلك لا يقدح فى إيمان الحسين وتقواه، ولا ينال من صلاحه، ولا ينفى كونه خير الأمة فى ذلك الوقت.

ومع أنه كان اجتهادًا خاطئًا، إلا أن صاحب الاجتهاد الخاطئ مأجور أجرًا واحدًا، فلقد كان خطأ الحسين - رضى الله عنه . خطأ اجتهاد ولم يكن خطأ هوى وعناد، خالفه فيه أخوه الحسن وحذره من الخروج إلى الكوفة قبل أن يموت - حتى شقيقه وأحب الناس إليه محمد بن الحنفية ذهب إلى ما ذهب إليه ابن عباس وسائر الصحابه والتابعين الذين رفضوا خروج الحسين رضى الله عنه ورأوا فى هذا الخروج هلكة له ولآل بيت رسول الله ﷺ .. وهذا الرأى هو الذى نرى صحته.

لقد اجتهد الحسين رضى الله عنه وهو أهل للاجتهاد .. ولكن اجتهاده كان خاطئًا وهذا لا يقدح فى دينه وإسلامه وتقواه .. وذلك لأن المجتهد إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد، ما دام متبعًا فى اجتهاده قواعد الشريعة مستفرغًا للوسع فى ذلك، مخلصًا لله فيه.

ثالثاً: إنا فى عرض العبر والعظات من قصة الحسين بن على رضى الله عنهما، لا نتحدث عمن هو الأصلح والأتقى قلبًا والأنقى فؤادًا .. ولكن نتحدث هنا عن النتائج وعن المصالح التى ضاعت، والمفاسد التى تحققت .. وهل حقق هذا القتال الغرض المنشود منه أم لا؟!

ولذلك لا يحتج علينا البعض بأننا لم نكل الشتائم لجنود الشام، ونكل المديح لجنود الحسين رضى الله عنه .. ونقارن بين تقوى الفريقين وأيهما الأقرب إلى الله .. فذلك أمر مفروغ منه .. وليس هو مجال حديثنا.

رابعًا : نحن ضد قتل الحسين وآل بيته رضى الله عنهم وهو أقرب إلينا من يزيد بن معاوية، وأحب إلينا من ابن زياد .. بل إننا نبغض فى ابن زياد تضيقه على الحسين رضى الله عنه وقتله، ولكن ذلك لا يمنعنا من بيان الصواب وتجلية الحق والقيام بالقسط «ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين» .. وإن كراهيتنا لما فعله ابن زياد ليس مسوغًا لكتمان الحقائق ولا تضليل العقول: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

.. عبر وعظات من خروج الحسين «رضى الله عنه».

كانت هذه مقدمات لابد منها قبل أن ننظر فى الأحداث نستخلص منها الدروس والعبر، التى يجب على المسلمين عامة والدعاة إلى الله خاصة أن يقفوا عليها ويفقهوها، وتكون واقعًا ملموسًا فى حياتهم .. ونبراسًا ونورًا يضىء للعاملين للإسلام طريقهم، ليتجنبوا المزالق والعثرات، ويتبصروا مواضع أقدامهم فلا يسقطوا فى حفر قد تعترضهم أثناء السير.

(١) رغم فضل الحسين رضى الله عنه وعلمه، ورغم شرفه وسيادته، ورغم حسبه ونسبه، ورغم أنَّه ابنُ بنت رسول الله ﷺ .. إلا أنَّ الإسلام كان دينًا واقعيًا لم يقم فقط على المثاليات ويهمل الماديات .. ولم يقم على الأمانى ويترك الواقع .. ولم يقم على العزيمة تاركًا الرخص والمباحات .. بل إن الإسلام جمع ذلك كله، فهو دين يجمع بين المثالية والواقعية وبين الروح والمادة، وبين الدنيا والآخرة، وبين الواجب والواقع وبين العزيمة والرخصة .. وكل هذه مجتمعة تعطى الإسلام قوته وقدرته على إصلاح الناس والمجتمعات.

ومن مظاهر واقعية الإسلام بل من أجلى مظاهر الواقعية فى هذا الدين أنَّه أجاز تقديم المفضول على الفاضل ، وبين أن الاجتماع على المفضول خير من التفرق على الفاضل .. والعلماء متفقون على إباحة تقديم المفضول للصلاة .. وأهل السنة والجماعة يرون الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة[١].

كما بين علماء الإسلام أنَّ تركَ الصلاة خلف الفاسق نوع من البدع فى حد ذاته، فكيف يكون الإسلام بهذه الواقعية حتى إنه يوجب الجهاد فى سبيل الله خلف أئمة الجور؟ .. وكيف يمنع الإسلام التفرق فى الصلاة تحت دعوى تقديم الأفضل وهو مجرد اختلاف لن يؤدى إلى مفاسد كثيرة؟

---

(١) راجع: «شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون خلف الحجاج بن يوسف رغم شدة ظلمه وبغيه.

فكيف لو كان هذا التفرق يؤدى إلى القتال والذبح والتنكيل؟

كيف لو كان ضحايا ذلك التفرق هم الصالحون الأتقياء وأهل الفضل والشرف؟

كيف لو كان هؤلاء القتلى هم الحسين بن على وأهل بيته، أو كان مسلم بن عقيل بن أبى طالب؟

لا شك أن الإسلام يمنع ذلك التفرق ويسد كافة أبوابه ويقطع سائر أسبابه .. لا شك أنه كان الأولى بالحسين - رضى الله عنه - أن يقبل إمارة يزيد مع علمنا أن يزيد هو المفضول، وأن الحسين رضى الله عنه هو الفاضل.

ولكن هذه هى واقعية الإسلام الذى يمنع التفرق والتشرذم والخروج على المفضول بعدما تمكن وتملك .. لئلا يجر ذلك على الأمة النكبات والويلات ..

لقد عرف الحسن بن على - رضى الله عنه- هذه الواقعية وعاشها حقيقة فى حياته فتنازل عن الخلافة لمعاوية - رضى الله عنه - مع أن الحسن أفضل منه .. واجتمع الناس على معاوية (المفضول) حتى عرف هذا العام بعام الجماعة.

وكان على الحسين - رضى الله عنه - أن يتركها ليزيد وهو المفضول، ليجتمع المسلمون عليه كما اجتمعوا على أبيه «معاوية» قبله، وينال الحسين رضى الله عنه من السيادة مثلما نال أخوه الحسن بتنازله وواقعيته، حتى مدحه ﷺ لهذه الواقعية فى قوله «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1] .. فكان على الحسين أن يستفيد من تجربة أخيه بالصلح، فحصل بذلك الصلح كل الخيرات من السيادة فى الدراين، ولم يقدح فيه صاحب علم ولا دين .. ولو فعل الحسين رضى الله عنه مثلما فعل أخوه لنال من الشرف والسيادة ما نال أخوه .. وما لامه أحد على خروجه من صحابة أو علماء أو عقلاء الأمة .. ووجوه الناس.

(٢) على الدعاة والمصلحين أن يسمعوا إلى نصح ومشورة أهل الرأى والعلماء والصالحين وأصحاب الخبرة والثقات من أئمة الدين، خاصة من شهد لهم بذلك كابن عباس وأبى سعيد وأبى

(١) أخرجه البخارى عن أبى بكرة.

واقد وابن عمر ومحمد بن الحنفية حتي يتجنبوا المخاطر ويحذروا المزالق .. لاسيما وأن هؤلاء الناصحين كانوا لهم مخلصين ولدعوتهم محبين ..

فلا شك أن هؤلاء الصحابة الأخيار كانوا يحبون الحسين وآل بيته أكثر من حبهم ليزيد .. ولا شك أنهم كانوا حريصين على سلامته وتحقيق مصالحه ومصالح الإسلام فوق أى اعتبار آخر .. حتى أن ابن عباس يود لو أنَّه أمسك برأسه حتى يمنعه من الخروج .. ومحمد بن الحنفية يمنع عنه بنيه أن يسيروا معه .. وكذلك عبد الله بن جعفر يراجعه فى الخروج، وكلهم يذكره قائلاً: «اتق الله فى أمة محمد».

فكان الأولى بالحسين رضى الله عنه أن يستجيب لنصح الناصحين .. ولكنه أصر على موقفه، وانفرد برأيه .. فودعه ابن عباس .. وكأنه ينظر إلى مصرعه، فاعتنقه وقال: «أستودعك الله من قتيل» .. فلو استجاب الحسين رضى الله عنه للنصح لما حدث ما حدث من قتل وجز للرؤوس، وسحق للأجساد بالخيول .. بل إن ابنه الصغير وآل بيته قتلوا بين يديه.

(٣) وكما أصر الحسين رضى الله عنه على الخروج للقتال . رغم اعتراض الثقات على ذلك .. فقد أصر على أن يصحب نساءه وأهل بيته .. وقد حذره ابن عباس أيضًا، لئلا يقتل أمام نسائه وبنيه كما قتل عثمان .. غير أنه خرج بنسائه وأولاده وأقاربه.

وها هو يقتل وهن يصرخن ويولولن .. ثم يحملن بعد ذلك كما تحمل السبايا إلى ابن زياد ثم إلى يزيد .. حتى أن أحد الأشقياء يهم باسترقاقهن .. لولا توسلات زينب وصياحها فيه وقولها : إنه لا يحل لك ذلك.

فأى ذل فوق هذا الذل، وأى فساد يفوق ذلك الفساد .. أن تسبى الحرائر، وتسترق الشريفات، وتهدد العفيفات فى أعراضهن؟ .. فكيف وهن نساء بيت النبوة والطاهرات من نساء العالمين .. وكيف يخرج بهن الحسين رضى الله عنه وهو مقدم على القتال والحرب ولا يعلم أتكون الدائرة له أم لغيره .. وكان الأولى أن يترك نساءه آمنات فى خدورهن، مصونات فى بيوتهن، قانتات فى محاربيهن .. فإن استتبت له الأمور أخذ نساءه فى عز وتمكين .. وإن كانت الأخرى فقد تركهن فى بيوتهن آمنات لا تطولهن سيوف الحرب، ولا يكتوين بنيرانها، ولا تحرق قلوبهن مرتين .. مرة

بقتل الحسين، وأخرى بحملهن سبايا مكلومات يهددهن الفجار فى أغلى ما تملك المرأة .. ويطفأ أمام أعينهن سراج كُنَّ يَسِرنَ على دربه، ويقتفين هداه.

(٤) إن مهمة الدعاة والمصلحين جلب المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها .. ولا يجوز لهم أن يفوتوا مصلحة كبرى لما هو أقل منها .. ولا أن يجلبوا مفسدة عظيمة لدرء ما هو أقل منها .. كما لا يجوز أن يضيفوا إلى مفاسد قومهم مفاسد جديدة.

ولما بلغ الحسين رضى الله عنه خبر مقتل مسلم بن عقيل وقطع رأسه وتيقن من ذلك .. فما هى الفائدة أن يصر الحسين على مواصلة المسير قائلاً : لا خير فى العيش بعده».

– أما كان الأولى أن يكتفى بقتل مسلم ويعود هو بمن معه من أهله؟!

– أما كان الأولى أن نلملم جراحنا ونحافظ على الموجود المتبقي بأيدينا؟

– أما كان الأولى أن نحافظ على ما حصلنا من مصالح .. ونكتفى بما حدث من مفاسد؟ .. ولا داعى لعبارة : «لا خير فى العيش بعده» .. لأنه لو كان لا خير فى العيش بعده فأى خير فى أن يقتل الحسين وآل الحسين رضى الله عنه بعد مسلم بن عقيل ليضاف مصابٌ جديد إلى المصاب الأول.

– فكيف يقول الحسين ذلك وكيف يقول أشقاء مسلم ذلك؟!

– وأى مصلحة تحصلها الأمة إذا كانت كلما قتل واحد من خيارها، قال من يليه، لا خير فى العيش بعده؟! .. ثم تتواصل حلقات السلسلة قتلاً وسفكًا وذبحًا حتى يفنى الصالحون .. وتستأصل شأفتهم ، وتباد خضراؤهم .. لأن كل واحد يرفض العيش بعد قتل أخيه.

نعم .. إنَّ محبة السباقين وأهل الفضل دين وعبادة .. لكن هذه العبادة لا تصرف فى جو مشحون بالعواطف بعيد عن نظرات العقول.

إن محبة السابقين ليس فى أن يقتل الصالحون بعدهم دونما فائدة أو مصلحة .. ولكن محبتهم هى حمل رسالتهم، وتصحيح ما علق بها من أخطاء وسلبيات، واستدراك ما فاتهم من مصالح الدين والدنيا.

لقد كان ابن الحنفية .. حكيمًا وذكيًا حين منع أبناءه من الخروج مع الحسين، ولما عاتبه الحسين رضى الله عنه فى ذلك، أجابه جواب البصير فقال: «وأى خير فى أن تقتل ويقتلون معك» .. وليس ذلك خذلانا لأهل الفضل .. لأنَّ الخذلان الحقيقى أن نسلمهم إلى الموت والهلكة فيقتلون ويقتل من وراءهم.

ماذا لو أكتفى الحسين رضى الله عنه وأخوة مسلم بقتله، وعادوا أدراجهم إلى مكة .. أما كان فى ذلك حفظ للأرواح ومنع لمزيد من القتل، وحقن لمزيد من الدماء؟

- أم أن قتل الحسين رضى الله عنه وآله لا يعد مفسدة! إلى جانب قتل مسلم بن عقيل؟!.

- لا شك أن قتل مسلم وحده خير من أن يقتل الحسين رضى الله عنه معه .. فكيف وقد قتل الحسين وآل الحسين رضى الله عنهم؟!

وقد قال ابن القيم : «موت العالم مصيبة، ونجم طمس، وثلمة لا تسد، وموت قبيلة أهون عند الله من موت عالم». فكيف إذا كان القتيل فى مثل فضل وشرف وعلم الحسين .. رضى الله عنه..؟!

وفى الحقيقة .. فإن هذه مشكلة قديمة فى الحركة الإسلامية، كلما قتل منها واحد، أو اعتقل منها قائد، نادوا بنداء الحسين «لا خير فى العيش بعده». فيقومون ليأخذوا بثأره فيقتلون كما قتل صاحبهم .. أو يعلنوا له الحرب لتخليصه من أسره، فيزج بالآلاف فى غيابات السجون .. ليذوقوا منها ماذاق قائدهم .. الذى سعت الحركة لتخليصه .. ولو أنها اكتفت بقتل رجل واحد لحقنت دماء العشرات، ولو أنها رضيت بسجن فرد من أفرادها لحافظت على الآلاف من أبنائها خارج السجون وصانت لهم حريتهم وكرامتهم، وعن قريب سيخرج هذا الأسير إلى الحرية وتحل المشكلة. ولكنها شعارات المتحمسين : يقولون : «لا خير فى العيش بعده».

(٥) إن على الدعاة .. أن يكونوا على خبرة ومعرفة بطبائع الشعوب وسجايا الناس، لئلا ينخدعوا بما لا يصح أن يخدعوا به .. وأن يستفيدوا من خبرة السابقين وأصحاب التجارب .. ولا يصروا أن يخوضوا التجربة بأنفسهم، وليس من الحكمة أن يبدأ الرجل من حيث بدأ السابقون .. ولكن عليه أن يبدأ من حيث انتهوا.

فلو نظر الحسين رضى الله عنه فى تجربتى أبيه وأخيه مع أهل الكوفة .. ولو سمع لوصف الفرزدق لأهل العراق .. ولو استجاب لنصح مسلم بن عقيل له قبل أن يقتله ابن زياد بالرجوع، خاصة أن مُسْلمًا خاض تجربة حية ماثلة حاضرة، وهو رسوله إلى العراق .. لو نظر الحسين فى هذه التجارب، لعلم أنه ليس كل من وعد وفَّى، ولا كل من تكلم عن القتال يصبر عند النزال:

«ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الذكاة، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال..»

- فهؤلاء تمنوا القتال ووعدوا بالجهاد ثم لم يقدروا على الوفاء.

وإن على الدعاة أن يكونوا على بصيرة من أتباعهم، لئلا يحكموا على الناس بما يرونه هم من أنفسهم من صدقٍ وإخلاصٍ ووفاء وثبات، وحقيقة الناس خلاف ذلك.

ولو سأل الحسين رضى الله عنه أباه عن أهل الكوفة .. لأجابه بقوله : «والله لقد مللتهم وأبغضتهم وملونى وأبغضونى، وما يكون منهم وفاء قط .. ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم ثبات ولا عزم على أمر، ولا صبر على السيف».

حتى لقد قال الحكيم: سلوا المجرب فإنه قد عاين الحقيقة ووقف على الدقيقة وعلم مالم تعلموا».

لقد خرج الحسين إلى الكوفة دون سماع تجربة أهل الخبرة والرأى فكانت النتيجة:-

.. لم يحقق أى مصلحة، وإنما جلب المفاسد الجمة .. ومنها:

أ - أطفىء سراج الدين بقتل الحسين - رضى الله عنه -

ب - قتل كل أولاد النبوة.

ج - تجرؤ الحكام على الصالحين والاستهانة بدمائهم وقتلهم وتشريدهم.

د - محاولة سبى نساء بيت النبوة، ولم يجرؤ على ذلك أحد قبل ذلك.

هـ - تمزق الأمة وتفرقها شيعًا وأحزابًا.

و - تتابع سلسلة الخروجات الفاشلة التى لم تحقق أى مصلحة.

ز – رسم صورة شائهة عن العالم الإسلامى وأن مشكلاته لا تحل إلا بالسيف والقتال..

– إن على الدعاة أن يكونوا ذوى خبرة بطبائع النفوس، ولا يغتروا بأصوات الآلاف الذين يهتفون وراءهم، ويحضرون مؤتمراتهم، ويستحثونهم بضرورة القيام بالخروج المسلح على الحكام، فيستكرهون الدعاة على ما لا يحبون ويدفعونهم إلى مالا يبصرون .. فيظنون أنَّ الأمة جميعًا وراءهم فيقتحمون بهم البلاء .. ثم ينفض الناس عنهم ويتركونهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

وقد تفرق ثمانية عشر ألف رجل عن الحسين رضى الله عنه وتركوه يقتل بين أيديهم وهم ينظرون .. بل إنَّ مسلم بن عقيل لا يجد بيتًا يؤويه .. ولما استضافته إحدى النساء سلمه ولدها للأمير مقابل «دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين».

– ولو علم الحسين طبيعة أهل الكوفة، ولو سأل أهل التجربة لعرف أن (من فاز بهم فقد فاز بالسهم الأخيب).

(٦) لقد كان الحسن بن على، وعبد الله بن عمر يستقرئان المستقبل، وينظران بعين البصيرة إليه .. فقد قالا للحسين رضى الله عنه: « إن الله لن يجمع لكم الملك والنبوة»، ولقد حاول أبوه علىّ ولم يتحقق له ذلك، وحاول الحسن ولم يظفر بما أراد .. ورضى الحسنُ بإمامة الدين وترك الخلافة والملك، وهذه حكمة عظيمة .. حتى لا يعتقد الناس أن النبوة تورث كما يورث الملك .. وحتى لا تنسب أخطاء الحكام لبيت النبوة .. فإن خطأ الحكام تعانى منه الأمة أجيالاً وأجيالاً، فليس من الحكمة أن تخرج هذه الأخطاء من بيت النبوة والرسالة.

وإنَّ على ورثة الأنبياء أن يأخذوا العبرة من ذلك، وأن وراثتهم للنبوة ليست فى الحكم والملك، وإنما فى العلم والدعوة ، وتعريف الخلق بالحق.

وأنه ليس كل تقى يصلح أن يكون ملكًا أو حاكمًا .. فلا بد أن نفرق بين التقوى والصلاح، وبين الحكم والسياسة.. فليس كل تقى يصلح أن يكون حاكمًا، ولا كل صالح يقدر على الخوض فى السياسة، ولا أن يسلك مسالكها الوعرة.

فعلى أهل العلم والدعوة أن يعرفوا أنهم ورثة النبوة فى العلم والبلاغ والهداية .. وأنهم عادة إن نازعوا أهل الملكِ ملكهم فسوف يحرمون من الإثنين فلن يصلوا إلى الحكم، ولن يكونوا ملوكًا

.. كما أنهم لن يتمكنوا من الدعوة ونشر العلم وهداية الناس، بل قد يؤدى النزاع مع الحكام إلى تحريم الدعوة، وقد يقتل الدعاة ويموتون.

ولذلك .. فواجب على الدعاة أن يكونوا أداة صلاح، وأبواب نصح للملوك والحكام، وأن يعيشوا معهم أعوانًا على الخير فقط .. وفى هذه الحال قد يقبل الحكام منهم نصحهم، ويستجيب الملوك لتوجيهات الدعاة والعلماء لهم .. بل قد يقبل الملوك من الدعاة ساعتها اللوم والمراجعة .. لأن الحاكم أو الملك إذا رأى أن العالم لا مطمع له فى ملكه وإمارته، وأنه لا ينوى أن ينازعه سلطانه، ومادام الملوك قد اطمأنوا إلى إخلاص الدعاة، وأنهم ليس لهم مطمع ولا غاية دنيويه، هنا قد يقربونهم ويستمعون إليهم ويقبلون شفاعتهم وينزلون على آرائهم.

أما ساعة الخروج المسلح فلن تنفع عند الملوك شفاعة حتى ولو جاءت من صاحب خلق وصلاح وتقوى، حتى وإن كان الناصح الحسين وآل الحسين.

فعلى أهل الدعوة والعلم إذا وقع القتال بين أبناء الأمة ألا ينشغلوا به ولا يخوضوا فيه. إنما يصرفوا جهدهم للدعوة والتعليم وتربية الناس على حقائق الإسلام وتعريفهم صحيح الدين.

لأن الخروج على الحكام يحمل من المفاسد أضعاف أضعاف ما يتوهم من مصالح .. وهذا ما جعل ابن عمر وابن عباس ينشغلان بالدعوة والتعليم دون منازعة أهل الملك ملكهم ، لما فى القتال والاحتراب من وهن الأمة .. وضياع كل المكاسب التى فى أيدى الدعاة، وحصار الدعوة، وانطفاء شعلة الإسلام.

واستئناسًا بقول ابن عمر للحسين رضى الله عنه «إن الله لن يجمع لكم الخلافة والنبوة» فقد لا يجتمع للدعاة وأئمة الدين فى كثير من العصور الدعوة والدولة، أو إمامة الدين والإمامة فى الحكم، خاصة إذا طلبوا ذلك عن طريق النزاع المسلح مع الحكومات .. وإن هم فعلوا ذلك فقد تضيع منهم إمامة الدعوة، كما تضيع منهم الرئاسة والحكم .. فلا هم تمكنوا من بلاغ دعوتهم، ولا هم استطاعوا إقامة دولتهم .. بل ربما حبسوا وشردوا وقتلوا، وبقى الحكم هو الحكم، والدولة هى الدولة .. ولكن الدعوة تكون قد ماتت والدعاة قد أعدموا أو سجنوا.

وهنا يجد أهل الفساد والمعاصى فرصتهم سانحة، وبضاعتهم رائجة، خاصة .. وقد خلت الساحة من صوت الهداية، وخفت نور الحق، وحرمت البلاد من الدعوة والدعاة .. فينشط أهل الأهواء، ويتبجح أهل الشهوات والسراق .. وينحرف الشباب، ويظهر عباد الشيطان ومن سلك مسلكهم، ويعيش المجتمع حياة الضنك والشدة.

(٧) كان على الحسين رضى الله عنه أن يعرف أنَّه حينما تقوم الحرب وينشب القتال، تُنْسَى فضائل الناس .. حتى يقول ابن زياد للناس «سبوا الكذاب بن الكذاب»، يقصد حسينًا وعليًا - رضى الله عنهما - وهم الذين كانوا يعترفون بفضله ومكانته وحتى يقول ابن زياد لمسلم بن عقيل: «يا فاسق كنت تشرب الخمر»، وهو يعلم أنه برىء من هذه الكبيرة.

بل إنَّ القتال يجعل الصف الواحد يلعنُ بعضه بعضًا، ويسب بعضه بعضًا . . وهل ظهر الخوارج وكفروا الصحابة وسعوا لقتلهم إلا من داخل الصف المسلم .. ساعة القتالِ؟ .. وهل تكثر الإشاعات والتُّهم الكاذبة، ويقدح كل طرف فى الآخر إلا ساعة القتال؟.. وهذه الإشاعات أمور ظنية، والطاعة ووحدة الصف أمور يقينية .. فكيف نترك اليقين للمظنون؟!

وكيف يُهْدِرُ أهلُ الفضل فضلَهم، ويَنْسَى أهل الشرف شرفَهم ويسيئون إلى أنفسهم، بل إلى أفكارهم التى يحملونها ويعيشون عليها؟!

ولم يجعل الله أهل دعوته وحملة رسالته أهل ذلٍ ولا هوان، وإنما جمع لهم كرامة الدارين، وأعطاهم كلتا الحسنين .. حتى إن القرآن يحدثنا مثلاً عن عيسى يقول: «وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين» .. وكما يحكى عن منزلة موسى يقول : «وكان عند الله وجيهًا».

فأى وجاهة فى أن يهدر المسلم كرامته ويعرض سيرته للتهم والتزوير وينسى الناس قدره، ويتنكر قومه لمكانته .. وقد قال الله لنبيه : «ورفعنَا لك ذكرك».

أما إنَّه لو لم يخض الحسين رضى الله عنه غمارَ الحرب .. ولو أنه لم يرم بِنفسه فى أتون المعارك، ومنازعة أهل الملك ملكهم، لظل فى الدنيا سيدًا وعظيمًا ولم يجرؤ أحد أن يقول : (سبوا الكذاب ابن الكذاب) .. رغم أن الحسين وأباه رضى الله عنهما كانا إمامين فى الصدق والدين.

– فعلى أبناء الحركة ألا يعرضوا أنفسهم لإهدار الكرامة والقدح فى أشخاصهم وسبهم على كل لسان وفى كل تجمع وبكل الوسائل .. لأن الحرب تهدر القيم وتنسى الفضل .. ولو أن ابن عباس دخل فى دوامة الحرب لما أثر عنه علم ولا فقه، ولما كان إمامًا فى التفسير، وإنَّما تخفى مناقبه وتجحد شمائله ويحرم الناس من علمه ودعوته، ولظل محجوبًا وراء غبار الخيول الذى أثارته المعارك والحروب

فعلى أهل الفضل ألا يهدروا فضلهم، وألا يذهبوا كرامتهم ومروءتهم .. وإنما يكون إهدار الكرامة .. بإعطاء الفرصة والمبرر لمن يريد التشهير ويجحد الفضل وينكر المعروف، وينشر الإشاعات .. وكل ذلك كائن لا محالة متى وقع الصدام المسلح واحتدم القتال بين أى طرفين .. فضلاً عن أبناء الدين الواحد والوطن الواحد والمصالح المشتركة.

(٨) قد يقول قائل: إن الحسين رضى الله عنه قد طلب مطالب عادلة، وسألهم أشياء منطقية .. وكان الواجب على ابن زياد أن يجيبه إليها جميعًا، كان يجب أن يتركه يرجع إلى مكة كما أراد .. وكان بإمكانه أن يذهب به إلى يزيد بن معاوية كما طلب الحسين رضى الله عنه ذلك ليتحاور معه، أما وإن رفض ابن زياد ذلك فقد كان بوسعه أن يترك الحسين يلجأ إلى الثغور بعيداً عن الخلافة وطلب الخلافة.

ونحن أيضًا نقول: نعم كان بإمكان ابن زيادٍ أن يجيب الحسين رضى الله عنه فيما طلبه .. وكان أمامه فرصة، يتحاشى فيها قتْله، ويحقن فيها دمه، ويجنب الأمة آثارًا عظيمة ترتبت على رفضه مطالب الحسين رضى الله عنه وإصراره أن يضيق عليه وأن يقتله.

نحن نقول ذلك ونحمل ابن زياد مسئولية مقتل الحسين رضى الله عنه .. ولكن لابد أن نتذكر أن هذه المطالب التى تقدم بها الحسين قد جاءت بعدما فات الأوان ومَضَى الوقت الذى يمكن لجيش مثل جيش الشام أن يقبلها بعده.

لقد جاءت هذه المطالب بعدما التقى الجمعان واصطف الجيشان .. بعدما شحنت النفوس ودقت طبول الحرب .. وإذا قامت الحرب فإن قانون الدنيا وقانون الحرب المعروف يفرض الآتى : «لا يستمع أحد لطلبات عادلة .. ولا يفكر أحد فى حلول منطقية .. وإنما يسود منطق القوة، وتغيب

قوة المنطق، ويغيب الحوار والتفاهم، .. ويبقى شئ واحد هو الذى يفرض نفسه على الموقف .. إنه صوت القوة، ولغة المدافع، وشريعة الغاب».

فإذا قامت الحرب لا تتقدم بمطالب، ولا تسأل عن حقوق، ولا تطالب بعدالة، لا تتحاكم إلى قانون، ولا تتوسل بمبادىء إنسانية.

إذا قامت الحرب لا تتمسح بجذور تاريخية، ولا بأصول عرقية ولا بمبادىء دولية .. لا تنتظر لجان حقوق الإنسان .. ولا تبكى صغارًا قد يتموا .. ولا تندب أطلال الديار التى خربت .. لا تفكر فى شىء من ذلك .. ولا تطلب من عدوك أن يلتزم بمبادىء، ولا تذكره بقانون فهو فى ساعة الحرب لن يلتزم ولن يتذكر. بل إنه لن يسمعك ابتداءً.

- إن الحرب صماء لا تسمع .. عمياء لا تبصر، بكماء لاتتحاور .. هوجاء لا تبقى ولا تذر.

- إن الحرب لا تعرف إلا لغة الدمار والخراب، والسعى إلى تحقيق هدف واحد هو إحراز النصر، وتركيع الخصم .. دون النظر إلى مشروعية الوسيلة أو عدم مشروعيتها.

هذه هى طبيعة الحرب، ولذلك لم يسمع ابن زياد إلى مطالب الحسين رضى الله رغم عدالتها .. ولم يتجاوب معها رغب أنها منطقية .. بل لم يلتفت إليها رغم نفعها للطرفين .. بل هى نافعة لجميع الأمة، ولنظام الدولة، ونافعة للإسلام والمسلمين.

نعم .. هى كذلك، ولكن ساعة الحرب لا مجال لها .. وليست هناك فرصة لسماعها .. فضلا عن التفكير فيها والتجاوب معها.

إن الذين ينادون بالمبادىء، ويطالبون باحترام القوانين، ويسألون عن الحقوق، ويسعون لنصرة قضاياهم العادلة، ومطالبهم المنطقية .. عليهم أولاً ألا يدخلوا فى نزاع مسلح مع حكوماتهم .. وعليهم ألا يشعلوا نار الحرب، ولا يستدرجوا للدخول فى هذه النزاعات المسلحة.

هكذا يجب أن يعمل أصحاب الحقوق، فإذا حدثت المواجهة المسلحة، أو استدرجوا لمواجهة لا قبل لهم بها .. فعليهم أن يبذلوا جهودهم لإيقافها، وأن يضحوا بكل شىء فى سبيل إنهائها..

ولأن يتجرع أصحاب الحقوق والمطالب العادلة العلقم فى حلوقهم، خير لهم من أن يسفكوا دمًا حرامًا، أو يزهقوا أرواحهم من غير سبب صحيح ولا مصلحة شرعية مؤكدة.

على الذين يبتغون نصرًا لدعوتهم، وتحقيقًا لأهداف دينهم .. أن يوقفوا القتال أولاً .. ثم بعد ذلك يسألون .. أين المبادىء؟ .. ولماذا لا تحترم القوانين؟ .. ولماذا تهدر الحقوق؟ .. ثم يقدمون مطالبهم العادلة.

- يتوقف القتال أولاً .. وساعتها يبدأ الحوار.

هذه هى طبيعة الحرب .. لا تعرف الحقوق، ولا تقف عند الحدود .. بل هدفها الوحيد إحراز النصر بأى وسيلة ممكنة، دون النظر فى مشروعيتها.

- وقد يقول قائل تعقيبًا على هذا الكلام ..

وهل هذا من الدين؟

وهل يقر الإسلام ذلك؟

وهل تقبل الشريعة هذه التصرفات؟

وهل يرضى الإسلام حربًا بلا أخلاق؟

نقول له: ليس هذا من الدين، نعم .. ولا يقره الإسلام، هذا حق لا مراء فيه .. ولكن من قال إن الحرب تلتزم الشرائع، أو تعرف الأخلاق.

نعم هناك صفحات مضيئة لحروب النبى ﷺ .. ولكن أين النبى ﷺ .. وأين أخلاقه فى السلم والحرب؟.

قد تلتزم أنت بأخلاق الإسلام فى الحرب والقتال، وأنت مشكور على ذلك .. ولكن هل تستطيع أن تلزم الآخرين بأخلاق الحرب فى الإسلام؟ وهل تقدر أن تجعلهم يتأدبون بأدب النبى ﷺ فى القتال؟

إن عليك أن تلتزم بالشريعة كما تشاء .. وأن تتخلق بأخلاق الإسلام ما استطعت .. أمَّا أن تلزم بها الآخرين، فلن يكون ذلك .. وسوف تترك نفسك لقمة سائغة تطحنها رحى الحرب وتسحقها المعارك، وتحرقها شهوة الانتصار.

لكل ذلك لم يلتزم ابن زياد، ولم يستمع لنداء الحسين .. ولم يستجب لمطالبه، ولم يستطع

الحسين رضى الله عنه أن يفعل معه شيئًا .. إنما راح هو وأهل بيته ضحايا معركة لا طاقة لهم بها .. ولا مصلحة لهم فى خوضها.

ومات الحسين رضى الله عنه .. وسيموت كل من يدخل الحروب .. وتبقى شريعة الحرب واحدة .. وقانون القتال ثابت: «افعل بعدوك كل ما تقدر عليه، ولا تستجب لنداء الأخلاق، ولا تتأرق لوخز الضمير»..

فإن جنازير الدبابات ليس عندها ضمائر .. وقذائف الطائرات لا تبصر صغارًا أو كبارًا .. وتحقيق النصر لا يتقيد بالطريق المستقيم.

إن من أراد لنفسه خيار الحرب عليه أن يعرف طبيعتها، وأن يقبلها بكل تبعاتها وأوزارها .. وإن كان هو مطالب ألا يدخلها إبتداءً .. أما أن يدخل الحرب، ويقتحم القتال ثم يقدم المطالب، ويطلب الحوار، ويسأل عن الحقوق .. ويبكى على الأطفال والنساء .. ويتمسح بالقانون الدولى، أو حقوق الإنسان أو يبكى مجدًا أو شرفًا .. من دخل الحرب ثم فعل شيئًا من ذلك نقول له.

إنك لم تفهم الحرب، ولم تخبر القتال بعد .. فلماذا أدخلت نفسك فيما لا تعلمه وليس لك به خبرة؟ ولا تقوى على تبعاته؟ والله يقول: «ما جعل عليكم فى الدين من حرج».

فالحرب لا تعرف إلا تحقيق النصر .. ولا تلتزم بالمبادىء ولا القيم.

(٩) وأخيرًا نسأل:

- هل حقق الحسين رضى الله عنه ما خرج من أجله؟!

- هل حقق المصالح المقصودة؟! هل حصل منها شيئًا؟!

- لم يحقق شيئًا من ذلك .. فلا هو تولى الملك .. ولا هو أبقى على مصالح الإسلام ودعاته وحملة مشاعله وهدايته من آل بيت النبوة.

- لقد كان على الحسين رضى الله عنه أن يبحث عن بدائل أخرى للإصلاح .. يبدأ بها وينتهى عندها، ولا يقتحم الحرب والقتال.

وإذا كان يزيد ابن صحابي، وقريب عهد بالنبوة، وقد فعل هذا بالحسين رضى الله عنه .. وهو

أيضًا صحابى وسليل بيت النبوة، وسيد شباب أهل الجنة فكيف لو وقعت الحرب وكان الحاكم ليس ابن صحابى، ولم يكن قائد الثورة ابن بنت رسول الله ﷺ؟

- كيف وقد تباعد بنا الزمن واندرس كثير من معالم الدين، وضعف الإيمان فى القلوب، وتملكتها الدنيا أكثر وأكثر؟

- كيف تكون النتيجة لو كان الخروج فى أيامنا هذه، وفى زماننا هذا؟

- لا شك أن النهاية ستكون أشد فداحة وأشد ظلامًا وفتكًا، ولذلك فإن الخروج المسلح على الحكام لا يحقق أى مصلحة .. وإنما يجلب المفاسد كلها.

- ولقد قال سعيد بن المسيب فى خروج الحسين رضى الله عنه : «لو أن حسينًا لم يخرج لكان خيرًا له».

- ويقول ابن تيمية: «إنه لم يكن فى خروج الحسين مصلحة، لا فى دنيا ولا فى دين، وكان فى خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد فى بلده .. فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شىء بل زاد الشر بخروجه وقتله، ونقص الخير بذلك .. وصار سببًا لشر عظيم، وكان قتل الحسين أوجب الفتن»[1].

(١) نقلا عن كتاب تسليط الأضواء ص ١٠٧

ثانيًا .. قصة «خروج جيش الحَرَّة [1]

فى سنة ٦٣ هـ ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية، وأمروا عليهم رجلين ، عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعبد الله بن مطيع، واجتمعوا عند المنبر فجعل الرجل منهم يقول: لقد خلعت يزيد كما خلعت عمامتى هذه، ويلقيها عن رأسه .. ويقول الآخر قد خلعته كما خلعت نعلى هذا، حتى اجتمع شىء كثير من العمائم والنعال هناك .. ثم قاموا بإخراج عثمان بن محمد بن أبى سفيان عامل يزيد على المدينة .. كما عمدوا إلى إجلاء بن أمية من المدينة المنورة، وحاصروهم فى دار مروان بن الحكم..

– وأرسل بنو أمية إلى يزيد يعلمونه بما هم فيه من الحصار والإهانة والجوع والعطش، وطلبوا منه أن ينقذهم مما هم فيه وإلا استؤصلوا عن آخرهم.

غضب يزيد لما بلغة عن بنى أمية، وأراد أن يرسل إليهم عمرو بن سعيد بن العاص يخرجهم مما هم فيه، وكان قد عزله عن المدينة، فأبى عمرو ذلك عليه .. فبعث إليهم مسلم بن عقبة على رأس عشرة آلاف فارس ، وخمسة عشر ألف راجل، وأمره أن يدعوهم ثلاثًا فإن رجعوا إلى الطاعة قبل منهم وكف عنهم، وإلا استعان بالله وقاتلهم .. ثم قال له : «وإذا ظهرت عليهم فأبرح المدينة ثلاثًا ثم اكفف عن الناس: ولما راجعه النعمان بن بشير رضى الله عنه، قال: ليس لهم إلا هذه الغشمة، والله لأقتلنهم بعد إحسانى إليهم وعفوى عنهم مرة بعد مرة ..

– وكان عبد الله بن حنظلة قد قدم عليه فى وفد من المدينة ومعه ثمانية من بيته، فأعطاه يزيد مائة ألف درهم وأعطى كل واحد من بنيه عشرة آلاف .. فلما رجعوا المدينة، قدم عليه الناس يسألونه، ما وراءك؟

– فقال : والله لقد جئتكم من عند رجل، والله لو لم أجد إلا بنى هؤلاء لجاهدتهم بهم .. قالوا: قد بلغنا أنه أعطاك وأخدمك .. وأجزاك وأكرمك. قال: «قد فعل، وما قبلت منه إلا لأتقوى عليه».

---

(١) البداية والنهاية .. ابن كثير (٨/٥٨٩:٥٩٦) بتصرف

وتاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى د. عبدالشافى محمد عبد اللطيف ص ٤٨٩-٤٩٢ بتصرف

وحض الناس، فبايعوه، وخلعوا يزيد ، ثم عمدوا إلى كل ماء بينهم وبين الشام فغوروه وصبوا فيه القطران.

ولما ثار أهل المدينة على يزيد، سألهم الناس عن سبب خروجهم فقالوا: إن يزيد يشرب الخمر، وتعزف عنده القيان، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب..

- وذهبوا إلى محمد بن الحنفية لينضم إليهم، فرفض ذلك وأنكر التهم التى قالوها عن يزيد .. وقال لهم : «ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك.. فقال: وما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر إلىَّ الخشوع؟

- أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ .. فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم، فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا.

قالوا : إنه عندنا لحق وإن لم نكن رأيناه .. فقال: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» .. وليست من أمركم فى شىء .. أ.هـ.

- ورغم هذا الحوار إلا أن أهل المدينة أصروا على الثورة، وإن كان ابن عمر - رضى الله عنه - أنكر عليهم خروجهم، بل ومنع أهله وولده من المشاركة.

فعند البخارى موصولاً إلى نافع قال: «لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر - رضى الله عنه - حشمه وولده فقال لهم : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»[1]، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال، وإنى لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا بايع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه.

بل إن ابن عمر - رضى الله عنه - سعى إلى زعماء الثورة ينصحهم ويبصرهم بخطأ ما هم عليه .. فقد روى مسلم، أن ابن عمر - رضى الله عنه - قدم على عبد الله بن مطيع زمن يزيد بن معاوية

(١) متفق عليه عن ابن مسعود وابن عمر

لما كان من أمر الحرة ما كان .. فقال ابن مطيع: مرحبا بأبى عبد الرحمن ضعوا له وسادة .. فقال ابن عمر: إنى لم آتك لأجلس، جئتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول الله ﷺ يقوله .. سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعه مات ميتة جاهلية»(١).

- هذا موقف ابن عمر - رضى الله عنه -وقد منع حشمه وبنيه من الخروج على يزيد، بل سعى إلى زعماء الثورة ينصحهم فى عدم الخروج ويحذرهم عقابه.

وكذلك فر من الفتنة جابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى - رضى الله عنهما - وقد أويا إلى جبل لئلا تدركهما هذه الفتنة.

- ونزل مسلم بن عقبة بجيشه شرقى المدينة فى الحرة الشرقية، ودعا أهلها ثلاثة أيام، كل ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما انقضى أجلهم .. قال لهم فى اليوم الرابع: «يا أهل المدينة مضت الثلاث .. وإن أمير المؤمنين قال لى : إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرنى أن أمهلكم ثلاثا، فقد مضت، فما أنتم صانعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟»

- فقالوا : بل نحارب .. فقال: «لا تحاربوا بل سالموا».

- فأبوا وتهيأوا للقتال .. وبدأت المعركة وانهزم أهل المدينة، وقتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان، منهم أميرا الثورة ، عبد الله بن حنظلة، وعبد الله بن مطيع وسبعة من بنيه.

- قال المدائنى: وأباح مسلم بن عقيل المدينة ثلاثة أيام يقتلون من وجدوا من الناس، ويأخذون الأموال.

- وقال الزهرى:

«قتل سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ، ووجوه الموالى، وممن لا أعْرف من حر وعبد، وغيرهم عشرة آلاف».

- وبعد هذا السرد لأحداث الثورة وما جرى فيها وموقف كبار الصحابة حيالها، نعود ونسأل:

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر

- لماذا كل هذا؟! .. لماذا تسيل الدماء؟!

- لماذا تستحل المدينة؟! .. لماذا يعم الخراب والنهب؟!

- لماذا يقتل المهاجرون والأنصار؟!

- لماذا كل ذلك؟!

- وهل تحقق من ثورة أهل المدينة ضد يزيد أى مصلحة؟!

- يقول الدكتور/ عبد الشافى محمد عبد اللطيف: وفى ظنى أنه لم يكن وراء هذه الثورة من دافع سوى الكره للحكم الأموى. . ولكن هل مجرد الكره يكفى أن يكون سببًا للثورة؟ .. فلو أن كل كاره لحكومة ثار عليها لما بقيت حكومة ولا دولة .. أ.هـ[1].

- وقال الخضرى: وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وجدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه .. ولا يدرى ما الذى كانوا يريدونه من خلع يزيد؟ أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية ولهم خليفة منهم يلى أمرهم؟! أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم؟ .. وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار .. ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد الجنود الإسلامية؟ إنهم فتقوا فتقًا، وارتكبوا جرمًا، فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة أ.هـ [2].

(١) تاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى. د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

(٢) نقلا عن المصدر السابق.

.. عبر وعظات من معركة الحَرَّة ..

(١) لقد كانت دعوة الإسلام واضحة صريحة فى تربية أتباعها على نبيل الخصال وعظيم الأخلاق .. كما كانت حريصة أن تخلصهم من حظ نفوسهم وتجردهم للمعانى الجميلة يعيشون بها ويبتغون من ورائها الأجر والثواب.

لقد أرسى الإسلام قاعدته العظيمة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان). كما قال ﷺ: «لم يشكر الله من لم يشكر الناس»[١].

- إن الإسلام يقابل الحسنة بمثلها وزيادة، وليس بأقل منها أو ضدها، فجزاء الإحسان الإحسان، وجزاء العطاء العرفان، وجزاء العهد والميثاق الصدق والوفاء.

لقد كان الأولى بعبد الله بن حنظلة أن يحفظ ليزيد يده عليه وإحسانه إليه وبذله المعروف له ولأولاده، وأقل صور الوفاء أن يذكره بجميل ما صنع معه. فقد أحسن يزيد مثواه وأكرم الوفد الذين نزلوا معه ضيوفًا على قصر الخلافة.

- فما كان يليق بعبد الله بن حنظلة أن يخرج عليه بعد أن بايعه، أو ينزع يدًا من طاعته بعد ما أعطاه صفقة يمينه، ولا أن يستغل المال الذى بذله له يزيد هو وأولاده فى التقوّى عليه ومحاربته، وهذا ما أنكره عليه أهل المدينة لما تعجبوا من خروجه على يزيد على الرغم من إحسان يزيد إليه حتى لقد قالوا لعبد الله بن حنظلة: «قد بلغنا أنه أعطاك وأخدمك وأجزاك وأكرمك».

- أجاب ابن حنظله على الناس بقوله : «إنه قبل إحسان يزيد ليستعين به عليه».

- إن النفوس العظيمة متى أكرمتها ملكتها، وكانت طوع إرادتك ورهن إشارتك ما لم تأمرها بمعصية أو مخالفة، فإذا أمرتها بمعصية رفضت ذلك الأمر وحفظت فى نفس الوقت لأصحاب الجميل جميلهم وراعت لأهل المعروف عطاءهم.

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ورواه الترمذى وقال الألبانى صحيح.

لقد حفظ النبى ﷺ للمطعم بن عدى معروفه الذى بذله وإجارته له ﷺ رغم شركه وكفره فتمنى لو كان حيًا ليهب له ﷺ أسرى بدر[١] وهم كل ما تبقى لديه من انتصاره فى المعركة.

- لقد جانب عبد الله بن حنظلة الصواب بخروجه على يزيد وتنكره لبيعته ومعروفه، وكان الأحرى به أن يقابل هذا العطاء بالعرفان .. ويقابل هذا الإكرام بالشكر له والثناء عليه.

إنه لا يصح أبدًا أن يخلع الناس يزيد كما يخلعون نعالهم وعمائمهم، وعبد الله بن حنظلة ساكت لا يتكلم ولا ينكر عليهم خروجهم. بل إن الناس عمدوا إلى عبد الله بن حنظلة فجعلوه عليهم أميرًا، ثم هو يقبل ذلك، ويتقدمهم للخروج على يزيد.

- إن نكران الجميل وعدم الوفاء بالعهد ليست من خصال المسلمين ولا تليق بعامتهم فضلاً عن الأوائل السابقين منهم، ولقد ورد فى الحديث الصحيح «من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له»[٢].

- إن ابن عمر رضى الله عنه كان من أعظم الناس وفاء وصدقًا حينما جمع ولده وحشمه وذكرهم بحديث رسول الله ﷺ «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»[٣]. ثم قال لهم : «... وإنى لا أعلم عذرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال ..».

- أما وإن عبد الله بن حنظلة قد أعطى يزيد طاعته وأقر بإحسان يزيد إليه وإلى أولاده .. فكان الواجب عليه أن يحفظ له ذلك، ويبقى على عهده له ويمنع الناس من الخروج عليه وخلعه، لا أن يقودهم فى معركة مسلحة ضد الخليفة داخل مدينة الرسول ﷺ.

نعم لقد اتهموا يزيد بتهم عظيمة ومعاص هى من كبائر الذنوب، ولكن محمد بن الحنفية أنكر دعواهم، وأبطل هذه التهم، وفند هذه المزاعم، وأوضح لهم خطأ اجتهادهم وبطلان خروجهم، لكنهم لم يسمعوا لقوله ولم يستجيبوا لنصحه .. فارتكبت هذه الفظائع .. وتكاثرت هذه المنكرات، وانتهكت هذه المحارم.

---

(١) رواه البخارى عن جبير بن مطعم .. حديث لو كان المطعم بن عدى حيًا».

(٢) رواه مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٣) متفق عليه عن ابن مسعود وابن عمر

– لقد كان ابن الحنفية هو أولى الناس بالتشفى والانتقام من يزيد وتأييد هذه الثورة والإقرار بهذه التهم وتثبيتها فى حقه وإشاعتها بين الناس لتهييج قلوبهم عليه .. «وكيف لا وقد قتل يزيد أخاه الحسين بن على – رضى الله عنه – وآل بيته، وفعل بهم ما فعل».

– ولكنها النفوس الأبية والقلوب النقية دائمًا ترفض المتاجرة بالمواقف والسمسرة بالأعراض، وتأبى ترويج الشائعات لأن التقوى والصلاح ومراقبة الخالق تمنعها من ذلك، فلقد عاشت هذه النفوس مع قوله تعالى : «وإذا قلتم فاعدلوا» وقوله تعالى: «وقولوا قولاً سديدًا».

(٢) إذا كان الإسلام قد ربى أتباعه على القاعدة العظيمة (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان». وجعلها سبيلا لتملك القلوب، فقد أرسى قاعدته الثانية (قاعدة العدل) وجعل لها الضوابط التى تسموا بها.

ومن هذه الضوابط:

١ – أنه لا عقوبة إلا بجريمة.

٢ – لا يؤخذ المرء بجريرة غيره.

– وهاتان قاعدتان عظيمتان تعارف عليهما فقهاء القانون فى العصر الحديث:

الأولى: المتهم برىء حتى تثبت إدانته.

الثانية: شخصية العقوبة، وتتمثل فى قوله تعالى : «ولا تز وازرة وزر أخرى».

– إن الله تعالى ينصر الحكومات العادلة ويحفظ عليها دولتها وملكها، ويزيل الحكومات الظالمة ويذهب بريحها حتى وإن كانت مسلمة .. هذا فى حالة كون المرء حاكمًا ومهيمنًا ويملك أسباب القوى .. فكيف لو وقع الإنسان فى الظلم وتجاوز العدل، وهو لم يتملك القوة بعد وقبل أن يحصل له التمكين فى الأرض؟ .. لا شك أن عاقبة ظلمه تكون عليه وخيمة، واضمحلال أمره يكون سريعًا.

– لقد وقع أتباع عبد الله بن حنظلة فى ظلم عظيم بحصارهم لبنى أمية، وحبسهم فى دار مروان، ومنعهم من حقوقهم الأساسية، وحرمانهم من حاجياتهم الضرورية، حتى اشتد بهم الجوع

وذهب بهم العطش مذهبًا، وأخذ الجهد منهم مأخذًا.

– طلب بنو أمية النجدة من يزيد، فأرسل من يفك عنهم الحصار ويرفع عنهم الهوان، ولكن أتباع عبد الله بن حنظلة طردوهم من بيوتهم، وسعوا فى إخراجهم من المدينة بكاملها.

– ولم يكتفوا بذلك ولكنهم عموا جميع بنى أمية بالعقوبة ولم يفرقوا بين شيخ كبير ولا فتى صغير، وإنما أخذوا الجميع بالعقاب، دون ذنب فعلوه، ولكنهم أخذوهم بأخطاء يزيد وحاسبوهم عليها لمجرد أن يزيد من بنى أمية.

– لا شك أن بنى أمية كان فيهم المحسن والمسىء، والمسرف على نفسه والمقتصر . وكان منهم الراضى عن يزيد والمؤيد لسياسته، كذلك كان فيهم الرافض ليزيد والناقم على حكمه .. وهكذا فى كل الشعوب.

– بل إن الذين أيدوا يزيد منهم متفاوتون فى درجة تأييدهم له ورضاهم عنه .. ولكن أتباع عبد الله بن حنظلة حاصروهم جميعًا، وسعوا فى إخراجهم وأخذوا الكل بذنب البعض ، والله يقول : «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

– إن تعميم العقوبة لهو الكارثة العظمى والآفة الكبرى والمظلمة الشديدة التى تحدث من كلا الطرفين المتقاتلين كلما حدث خروج مسلح على الحكام .. وهذا لا يعفى منه عصر دون عصر، ولا بلد دون بلد، بل هو عام فى كل زمان ومكان يقع فيه قتال «إلا من رحم ربك» ، وهم قليل .. نسأل الله العافية والسلامة.

– إنه بحصار أتباع عبد الله بن حنظلة لبنى أمية جميعهم خرجت الأمور عن مسارها الصحيح وأصبحت الأحداث تصب فى صالح يزيد وتعاطف الناس معه خاصة بنى أمية الذين استعداهم الثوار دون مبرر، وانتصر يزيد فى المعركة.

– إن كثيرًا ممن يخرجون على الحكام تكون لهم قضايا عادلة أو مطالب مشروعة يقرهم عليها العرف والعقل والدين .. لكن بسبب تصرفات غير منضبطة وأعمال غير صحيحة تضيع هذه الحقوق وتنسى هذه المطالب، ويتنكر الجميع لعدالة قضيتهم.

- إن الذين يختطفون بعض الرهائن من المدنيين، ويساومون عليهم دولهم لتحقيق بعض المطالب والتى قد تكون عادلة. ينقلب العالم ضدهم بسبب سوء تصرفهم.

- إن الإسلام قد سبق القانون الوضعى فى إرساء القاعدة القانونية (شخصية العقوبة)، ولقد قالها القرآن قبلهم بخمسة عشر قرنًا من الزمان «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

- إن اختطاف دكتور أو مهندس أو عامل أو موظف لا علاقة له بالحرب ولا حتى بسياسة دولته ولا شأن له بشىء سوى حياته الخاصة واحتياجاته الشخصية .. بل ومن الممكن أن يكون غير موافق على سياسة دولته .. ليس من الإسلام فى شىء .. ولا تقره الشريعة الإسلامية ولا القوانين الوضعية.

إن اختطافهم ليس من الإسلام فى شىء، كما أنه لن يخدم قضايا الإسلام العادلة .. ولن يحقق مطالب خاطفيه رغم أنها قد تكون مطالب منطقية.

- وتعظم هذه المصيبة حينما يقع الاختطاف لرجل مسلم، ويقوم به نفَر من المسلمين .. فما ذنب هذا الإنسان، وما جريمته؟!

وتعظم المصيبة أكثر حينما يتم ذبح هذه الرهينة أمام الكاميرات وبثها إلى العالم كله عبر القنوات الفضائية، لتعطى أسوأ صورة للإسلام والمسلمين.

إن الدول الكبرى تفعل كل شىء، تقتل وتدمر وتعذب، بل وتحتل دولاً بأكملها وهى تتحدث عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان .. وهى تفعل كل ما تريد فى الخفاء.

- أما نحن فلا نصنع شيئًا يذكر فى الدفاع عن بلادنا وأوطاننا سوى خطف المدنيين وتصويرهم وهم يذبحون ذبح الشياة، ليقوم بعدها العالم بأسره ضدنا، وضد حقوقنا ومصالحنا .

«.. وأخيرًا بقيت لنا كلمة»

- هل تحقق لأتباع عبد الله بن حنظلة ما أرادوا؟

- هل منعوا يزيد من فسقه؟

- هل ثأروا فعلاً للحسين - رضى الله عنه -؟

- هل حاكموا الذين قتلوه؟

لقد خرجوا على يزيد لأنه يشرب الخمر .. فولغت جنوده فى دماء المهاجرين والأنصار، وقتل منهم هذا الكم الغفير، وهم الذين تحبهم قلوب المسلمين جميعًا وتهفوا إلى لقائهم.

لقد خرجوا عليه لأنه يستمع إلى الغناء. فحدثت من المفاسد ما يربو على مفاسد الغناء مرات ومرات.

- وقالوا نخرج عليه لأنه لا يواظب على الصلاة.. فاستباح المدينة ثلاثاً يقتل ويسرق ويفسد جنوده .. وذلك لأن الخروج المسلح يجرىء الحكومات على حرمات الدين والإسلام.

- سيقول البعض :

كان مفروضًا على جيش الشام أن يراعى حرمة المدينة المنورة، ويراعى جوار رسول الله ﷺ فيها فلا يستبيحها ولا يقتل ولا يظلم.

- نقول : نعم .. كان مفروضًا عليه ذلك.

ولكن الجيوش ساعة الحرب عادة لا تحترم ميثاقًا، ولا ترحم صغيرًا، ولا توقر كبيرًا، ولا تراعى حرمة ولا .. إلخ.

- إن هدف الحرب الأساسى هو إحراز النصر على من يعاديها، فإن تحقق ذلك بالرحمة والعدل فبها ونعمت .. وإن لم يتحقق فبكل أسلوب سواها.

هذه هى الحرب على مر العصور والدهور .. فعلى من يخوضها أن يتحملها بجميع تبعاتها .. وإلا فلا يعطى الذريعة للحكومات كى تتجرأ على الدين وتنتهك الحرمات وتهدر الكرامات وتتجاوز القوانين والمواثيق .. ثم يسأل، كيف يحدث هذا؟

- فإنما عليه تبعة ونصيب من تجاوز الحكومات ومخالفاتها.

- ولقد قال المؤرخ الشهير الخضرى بك فى تعقيبه على ثورة أتباع عبد الله بن حنظلة ضد يزيد : «إنهم فتقوا فتقًا وارتكبوا جرمًا، فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة»[1] أ. هـ.

(١) تاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى. د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

ثالثًا .. «قصة خروج جيش التوابين» *

هم طائفة من الشيعة ممن أرسلوا إلى الحسين - رضى الله عنه - يطلبون إليه أن يسير إلى الكوفة .. فلما خرج إليهم خذلوه وقتلوه.

ولكن بعد مقتل الحسين رضى الله عنه ونهايته الأسيفة، هزهم ما حدث ، وعضوا أناملهم ندمًا على ما حدث منهم من تقصير فى حق الحسين رضى الله عنه، وأرادوا أن يتوبوا من هذا الذنب العظيم .. فتنادوا بثأر الحسين رضى الله عنه وأقاموا عند قبره يصلون ويبكون وكان من دعائهم:

«يا رب إنا خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم، وارحم حسينًا وأصحابه الشهداء الصديقين، وإنا نشهدك يا رب أنا على مثل ما قتلوا عليه .. فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين»

- وتأمر الصحابى الجليل سليمان بن صرد - رضى الله عنه - على جيش التوابين وكاتبه عشرون ألفًا من الجنود للسير معه للأخذ بثأر الحسين - رضى الله عنه - فلما أراد الخروج لم يأته غير أربعة آلاف منهم .. ثم تخلف من هؤلاء الأربع ألف آخر فبقى معه ثلاثة آلاف .. ورغم قلة العدد عزم على السير بهم لقتال عبيد الله بن زياد فى الشام.

- أرسل عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة إلى سليمان بن صرد - رضى الله عنه - يعرضان عليه التعاون معه ضد قتلة الحسين - رضى الله عنه - وطلبا منه الانتظار حتى يجهزا جيشًا قويًا يساعده، لكن سليمان بن صرد - رضى الله عنه - أبى الانتظار .. وقال :«إنا خرجنا لأمر لا نرجع عنه ولا نتأخر».

- كما أرسل سليمان بن صرد - رضى الله عنه - سعد بن حذيفة بن اليمان فى المدائن يطلب منهم العون فى قتال ابن زياد .. وتواعدا موعدًا للخروج .. ولكن الجنود ألحوا على سليمان بن صرد - رضى الله عنه - بعدم الانتظار.

---

* البداية والنهاية .. ابن كثير (٨ / ٦٢٧) بتصرف

وتاريخ العالم الإسلامى فى ظل الحكم الأموى ٤٧٨: ٤٨١ د. عبدالشافى محمد عبد اللطيف.

فخرج جيش التوابين بعدده القليل ثلاثة آلاف رجل، ساروا إلى الشام يطلبون ابن زياد ليقتلوه، ورفضوا الدخول فى طاعة مروان بن الحكم.

- نزل سليمان بن صرد - رضى الله عنه - بأصحابه غربى «عين وردة»، وأقام بها واطمأن قبل أن يصل إليها جيش الشام .. فلما اقترب جيش الشام خطب سليمان أصحابه فرغبهم فى الآخرة، وزهدهم فى الدنيا .. ثم عين الأمراء من بعده إن هو قتل.

وتهيأ الفريقان واقتتلوا قتالاً شديدًا سائر يومهم إلى الليل، وفى الصباح أمد ابن زياد جيش الشام بثمانية عشر ألف فارس .. وفى هذا اليوم اقتتل الناس قتالاً لم ير مثله .. لا يحجز بينهم إلا الصلوات إلى الليل .. فلما أصبح صبح اليوم الثالث، وصل إلى جيش الشام مدد جديد من عشرة آلاف رجل، واقتتل الفريقان قتالاً أشد مما سبق.

- واستدار أهل الشام بأهل العراق من التوابين، وأحاطوا بهم من كل جانب، ونادى سليمان بن صرد - رضى الله عنه - فى جيش التوابين فقال: «يا عباد الله من أراد الرواح إلى الجنة، والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فليأت إلىَّ»..

وتكاثر عليه الناس .. ثم رماه رجل من الشام بسهم فوقع، ثم وثب ثم وقع، ثم وثب ثم وقع، وحمل الراية بعده رجلان، فقتلا أحدهما بعد الآخر حتى انتهت الراية إلى رفاعة بن شداد، فانحاز بالناس وقد دخل الظلام.

وقفل رفاعة بمن بقى معه راجعًا إلى العراق .. فقابلهم سعد بن حذيفة بمن معه من أهل المدائن جاء لنصرتهم .. فلما أخبروه خبرهم ومالاقوه من الهزيمة بكوا عليهم وترحموا على من قتل، واستغفروا لهم.

وانصرف أهل المدائن عائدين .. ورجع أهل الكوفة وقد قتل منهم خلق كثير.

عبر وعظات من خروج جيش التوابين

أولا

لقد انتهت قصة التوابين بقيادة سليمان بن صرد - رضى الله عنه - لنرى أنها لم تكن إلا مظهرًا من مظاهر الحماس لنصرة الحق والمطالبة بدماء الشهداء فى كربلاء.

انتهت لنرى أنها مجرد ثورةٍ من ثورات العواطف والمشاعر التى تهب علي القلوب، وتخيم على العقول فتحجبها عن رؤية الطريق الصحيح لنصرة المظلوم، ومقاومة الظلم ورفعه عن الناس.

إن كثيرًا من الناس حينما يرى ظلما قد وقع، أو حقًا قد سلب، أو واجبًا قد ضيع .. يفكر طويلاً فى رفع هذا الظلم ، ويقضى الليالي يتحرق شوقًا إلى ساعة يسترد فيها هذا الحق المغصوب، أو يقيم الواجب الذى غاب.

ولا شك أن هذا الشوق لإعادة الأمور إلى نصابها، وانتظار الساعة التى يسود فيها العدل، ويعود الحق إلى أصحابه ويرفع الظلم عن المظلوم .. لاشك أن ذلك شعور عظيم وخلق نبيل، وصاحبه مأجور عليه إن شاء الله.

ولكن كما أن تمنى نصرة المظلوم ومحاسبة الظالم، أو إصلاحه وتقويمه عبادة عظيمة .. فإن هناك عبادة أخرى واجبة .. ليست بأقل وجوبًا من العبادة الأولى.

هذه العبادة العظيمة التى قد يغفل عنها الناس تتمثل فى التفكير الدقيق والبحث الجيد عن كيفية إعادة هذا الحق إلى أهله .. وما هى الطريقة القويمة لرفع هذا الظلم الواقع؟ .. وما هى البدائل المطروحة لتقويم هذا الخلل الموجود؟

وهل هذه البدائل صحيحة شرعًا؟ ومنضبطة سلوكًا؟ .. ومحققة للهدف يقينًا لا ظنًا؟ .. هل هى جالبة للمصالح ودافعة للمفاسد؟

هذه هى العبادة الثانية الواجبة .. وهى عبادة البحث عن وسيلة صحيحة شرعًاَ ، يقينية لا ظنية، راجحة لا مرجوحة لإحقاق الحقوق.

إن بذل الجهد، وإنفاق الوقت، وصرف الطاقات لبلوغ الهدف الصحيح، وتقويم الخلل المشاهد لابد أن يلازمه بل لا ينفك عنه تفكير عميق طويل فى كيفية أداء هذا الواجب، ورفع الظلم، وعودة الحقوق إلى أصحابها.

ينبغى أن نعرف أنه إذا كانت نصرة آل الحسين - رضى الله عنه - واجبة وإعادة الحقوق إليهم عبادة .. فإن تخير الوسيلة الصحيحة الموصلة إلى ذلك يقينًا لا ظنًا هو أيضًا واجب لا يقل أهمية عن الواجب الأول.

لقد فكر التوابون كثيرًا وعاشوا طويلاً يتمنون نصرة آل الحسين - رضى الله عنه - بل وقفوا على قبره يذرفون الدمع ندمًا على خذلانهم إياه وتخليهم عن نصرته.

- ولا شك أن الإحسان إلى الحسين - رضى الله عنه - وآله وتقديم المعروف لهم من أعظم القربات .. ولا شك أيضاً أن حب الحسين رضي الله عنه وآل بيته من الإيمان ... فهم آل النبى ﷺ وعشيرته..

ولا شك أيضًا أن حياة الحسين - رضى الله عنه - أحب إلى المسلمين جميعًا من قتله، وبقاءه أنفع لهم من موته.

ولا شك أن تمنى عودة حقوق آل الحسين - رضى الله عنه - إليهم هو ركيزة داخل نفس جمهور المسلمين .. وقد تمنى التوابون ذلك.

- ولكن هل فكر جيش التوابين فى الطريقة المثلى لنصره الحسين رضى الله عنه .. وآله؟

- هل طرحوا عدة بدائل لرد العدوان الذى وقع على الأمة جميعها بقتل الحسين - رضى الله عنه؟

- هل تخيروا من بين هذه البدائل أضبطها شرعًا وأيسرها مسلكًا وأقدرها على تحقيق الهدف، ورفع الظلم الذى أصاب الحسين - رضى الله عنه - وآل الحسين؟

- هل أخذوا بالوسيلة المضمونة لبلوغ غايتهم؟

- هل فعلوا ذلك؟ أم أنهم تمنوا نصر الحسين - رضى الله عنه - وعودة حقه إليه، ونادوا «يا لثارات الحسين»، ثم لم يفكروا كيف ينصرونه؟

- فحصروا أنفسهم فى آلية واحدة، ولم يروا ثمة وسيلة أخرى غيرها، وجعلوا خيارهم الوحيد هو القتال.

- فخرجوا رغم قلتهم وضعفهم، وقوة جيش يزيد وكثرته.

- خرجوا وهم أفراد على جيش يمثل خلافة ودولة، تملك أجهزة وموارد وأموال ومؤسسات.

- خرجوا يريدون القتال أخذًا بثأر الحسين - رضى الله عنه.

- لقد خرجوا ورأوا أنه لا سبيل أمامهم سوى القتال، فرفضوا الرجوع عنه .. ورفضوا انتظار المدد من المدائن وغيرها لنصرتهم .. ولم يعدوا للأمر عدته .. وإنما أخرجتهم العواطف والمشاعر النبيلة.

- فكانت المحصلة لهذا الخروج للقتال .. هزيمة جيش التوابين، وقتل قائدهم، وفرار البقية الباقية ولجوءهم إلى المختار الثقفى.

لقد فرضوا على أنفسهم القتال، فهزموا دون أن يثأروا للحسين - رضى الله عنه - ولم يقدروا على نصره، بل أصبحوا بحاجة إلى من ينصرهم ويدافع عنهم.

ولو فكر التوابون قليلا لوجدوا أمامهم بدائل عدة لنصرة الحسين - رضى الله عنه - يمكنهم أن يأخذوا بإحداها ويتخيروا بينهم..

لو فكروا قليلا لعلموا أن نصر الحسين - رضى الله عنه - ليس محصورًا فى القتال وحسب، ولا فى الخروج المسلح والثورة ضد الدولة.

لو فكروا لعلموا أن هذا الخروج لن يحقق لهم ولا آل الحسين - رضى الله عنه - أى مصلحة ولا فائدة.

- لقد كان بإمكان التوابين أن ينصروا الحسين - رضى الله عنه - بطريقة أخرى غير القتال .. كان نصره ممكنًا بحمل رسالة الإسلام التى كان الحسين - رضى الله عنه - يحملها .. وتربية الأجيال على معانى الإسلام الصحيحة ، وتعليمهم لمبادئ الدين السامية التى عاش الحسين - رضى الله عنه بها، ومات من أجلها.

إن عيش الناس على الرسالة الحقة والقيم العظيمة لهو أحب إلى الحسين - رضى الله عنه - من أن يموت الناس وراءه ، أو يقتل التوابون أنفسهم حزنًا عليه.

إن عيش الناس على مناهج وأفكار السابقين، يمنح السابقين حياة إلى حياتهم ، ويضيف لهم أعمارًا إلى أعمارهم، ولازال السابقون أحياء ما حمل الناس مبادئهم وتحلوا بأخلاقهم.

- نعم لقد مات الحسين - رضى الله عنه - بشخصه، وكان من الممكن أن يعيش مع التوابين أجيالاً فى قلوبهم، وأن تطول حياته قرونًا فى عقولهم، ما داموا يتوارثون دعوته، ويحملون مبادئه، ويتخلقون بخلقه فى واقع حياتهم.

أما أن يموت الحسين - رضى الله عنه - ويموت وراءه من يحبه مثل جيش التوابين .. فماذا جنى الحسين - رضى الله عنه - لفكرته؟

- وماذا قدم الأتباع لقائدهم؟

- وماذا حصلت الأمة من موت الجميع «الحسين -رضى الله عنه - وجيش التوابين».

- نعم .. إن مبادئهم لا زالت خالدة فى الضمائر محفورة فى العقول، وهذا حسن جميل، ولكن المبادىء لم تشرع لتظل حبيسة العقول ولا أسيرة للضلوع فحسب .. وإنما شرعت المبادىء لتكون منهاجًا واقعًا فى الحياة، وأن تتمثل شخوصًا حية فى دنيا الناس.

ولن يكون ذلك بموت القادة والعلماء، ثم بموت الأتباع من ورائهم، وإلا اندثر الخير وغاب الصلاح من الأرض.

إن نصرة الصالحين إنما تكون فى العيش بفكرتهم والانضباط بمنهجهم والسعى للهدف الشرعى الصحيح الذى سعوا إليه.

وإن محاولة توريث الصالحين، وتوضيح منهجهم وتجلية هدفهم أمام الأجيال لهو أعظم نصر لهم فى حياتهم وبعد موتهم.

وإن عمر الداعية والعالم يمتد بامتداد اتباعه وتتسع حياته باتساع محبيه وحملة دعوته، حتى يصير عمر الواحد من الصالحين كعمر أمة بأسرها وتتسع حياته باتساع الحياة والزمن بكامله.

وإذا كان الحديث يقول : «خيركم من طال عمره وحسن عمله»[1] .. فإن خير الدعاة وأفضل العلماء من عاشت دعوته من بعده واقعًا فى حياة الأجيال .. وانتشرت مبادئه تشمل سائر الأقطار .. وكلما اكتسبت دعوته فردًا جديدًا فقد ولد الداعية ميلادًا جديدًا.

هؤلاء هم خير الدعاة والعلماء من عاش الناس بدعوتهم وليس من مات أتباعهم وراءهم، أو قتلوا أنفسهم حزناً عليهم.

إن على الدعاة والمربين أن يعلموا الناس حمل رسالة الإسلام من بعدهم وعلى الأتباع أن يتوارثوا مبادىء الدعاة والعلماء، لا أن يموتوا من ورائهم.

ثانيـــًا ..

إذا كان خير الدعاة من عاش الناس من بعده على مبادئه ودعوته .. فإن خير الدعاة أيضًا من كان رحيمًا بأتباعه وجنوده.

إن الله تعالى وصف سيد الدعاة ﷺ بقوله : «بالمؤمنين رؤوف رحيم» .. وجعل هذه الرحمة سببًا لاجتماع الناس عليه والتفافهم حوله.

بل إن وظيفة الرسول ﷺ أن يزيل عن أمته الأثقال والأوزار ويضع عنهم الآصار والأغلال .. قال تعالى : «ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم».

وهذا هو الداعية الناجح والقائد العظيم والمربى الحكيم، لايقحم أتباعه فيما لا قبل لهم به ولا يحملهم مالا يطيقون .. ولا يعرضهم لِمُرِ الأمر الذى يصدره لهم .. وحر القهر الذى يلاقونه فى حياتهم وحركتهم .. بل إنه يمسح عنهم التعب، ويدفع عنهم العطب .. ويبسط لهم جناحه، وينشد لهم السلام .. ويتحرز بهم من الهلكة.

---

(١) رواه الترمذى عن عبد الله بن بسر بلفظ «خير الناس» وقال: صحيح

أما أن يعرضهم للمخاطر، ويغامر بهم فى الشدائد، ويقتحم بهم الحروب .. ويخرج بهم على ضعفهم وقلة حيلتهم لقتال لا يستطيعون له دفعًا .. فما هذا بمنهج الدعاة الموفقين، ولا بطريق المربين المسددين.

لقد خرج سليمان بن صرد - رضى الله عنه - بثلاثة آلاف من جنوده، لم ينتظر لهم مددًا ولا عونًا، وإنما خرج بهذا العدد القليل والعدة الضعيفة لقتال جيش الشام البالغ ستين ألفًا بكامل عدتهم وسلاحهم.

- خرج جيش التوابين وهم يعتقدون أن الإيمان الذى يحملونه فى قلوبهم، والحق الذى ينشدونه بنصرة الحسين - رضى الله عنه - كفيلان بتحقيق النصر لهم وحسم المعركة ضد جيش الشام، وإن كانت عدتهم ضعيفة وعددهم قليلاً.

ولو تأمل سليمان بن صرد - رضى الله عنه - ومن معه لعلموا أن الله رحمهم وخفف عنهم، ولم يكلفهم من الأمور مالا يطيقون.

لقد كان عليهم ألا يشقوا على أنفسهم، وكان أمامهم مندوحة ومخرجًا لعدم الحرب والقتال لضعفهم وعجزهم .. فما كان لهم أن يشقوا على أنفسهم وقد خفف الله عنهم، لأنه كما قال العلماء «القدرة مناط التكليف».. فمن لا يقدر لا يؤمر.

- نعم ، إن الأفراد قد يصمدون بل يستبسلون ويقاتلون وإن كانوا مثخنين بالجراح .. وهم لاشك مشكورون لثباتهم وممدوحون لتضحياتهم.

- ولكن القائد الحصيف يجب عليه ألا يتركهم على ذلك .. فضلاً عن أن يأمرهم بخوض مثل هذا القتال، أو أن يتقدمهم لمثل هذه الحرب.

إن على الداعية والمربى أن يشكر الأفراد على صبرهم .. وأن يمدحهم على تضحياتهم، ولكن عليه أيضًا أن يمنعهم أن يوردوا أنفسهم المخاطر .. أو يلقوا بأيديهم إلى التهلكة.

- نعم لقد صمد جيش التوابين وقاتلوا، بل ماتوا وهم فرحون .. ولكن فى النهاية ذهبت قواهم وانكسرت شوكتهم وظفر بهم جيش الشام، لأنهم تعرضوا لما لا يطيقون، ووقف قائدهم ينظر إليهم وهم يقتلون ويشردون .. وهو لا يقدر أن يدفع عنهم ولا يملك لهم نفعًا، ولا يقدر على الخلاص من الأزمة التى وقع فيها جنوده.

إن بوسع أى إنسان أن يبدأ القتال ويشعل فتيل الحرب، ولو بعدد قليل وعدة ضعيفة .. ولكن ليس كل من دخل الحرب بقادر على أن يحرز النصر .. وليس كل من دخل الحرب قادرًا أن يدافع عن جنوده .. وليس كل من أشعل نار القتال يمكنه أن يطفىء هذه النار.

إن إشعال فتيل الحرب يحسنه كل أحد .. أما إطفاء فتنة القتال وإخماد نار الفتنة فلا يستطيعه إلا الأفذاذ من الرجال .. والحكماء من الناس، والعقلاء من كلا الطرفين .. وقد لا يستطيعها أحد حتى تأتى على الأخضر واليابس وتجر البلاد إلى جو من الفوضى قد يودى بالناس، ويذهب بالأوطان.

إن الحرب تبدأ صغيرة ثم تكبر، وتبدأ ضيقة ثم تتسع، وعلى كل من دخلها إما أن يحرز نصرًا، وإما أن يقتل، وإما أن يستسلم ذليلاً مغلوبًا .. و «ويل للمغلوب من الغالب» كما يقولون.

وكان حريًا بسليمان بن صرد - رضى الله عنه - أن يتأنى ويتريث ويغلب الحكمة قبل أن يخوض هذه المعركة الخاسرة .. فقد خاض المعركة بثلاثة آلاف رجل فى مواجهة جيش الشام بكامل سلاحه .. لأن الداعية الحصيف هو الذى يمنع أتباعه من الهلكة، ويرحمهم من البلاء والشدة .. والداعية الحكيم هو الذى ييسر ولا يعسر، ويدور بالناس مع العزيمة والرخصة، والواجب والمباح ولا يضيق عليهم واسعًا.

- إنه لم يكن عيبًا ولن يكون أن يحجم القادة عن خوض معارك لا تحقق للإسلام ولا للأوطان أى مصلحة، بل تجر عليهم كل المفاسد.

وليس من العيب أيضًا أن ينسحب قائد بجنوده قبل أن تستأصل شأفتهم حتى يحافظ على سلامة أبنائه وسلامة أمته، ويحفظ سمعة الإسلام أن تشوه وتسوء فى أذهان وعقول الناس .. ويفوت الفرصة على أعداء الأمة والمتربصين بها فى كل حين.

لقد كان حريًا بابن صرد - رضى الله عنه - أن يتذكر مدح النبى ﷺ - لخالد بن الوليد رضى الله عنه بعدما انسحب بجيشه[1] .. وقد أثنى ﷺ على الحسن رضى الله عنه وجعله سيدًا لأنه

(١) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه.

أغمد سيفه وصالح معاوية - رضى الله عنه - فحفظ نفسه وأهله، ولم يفرق أمته، ورحم المسلمين من القتال فرحمه الله تعالى و «الراحمون يرحمهم الرحمن»[1] .. ولقد جعل الإسلام السيادة والرحمة جزاءً لكل من يرحم الناس ويرعى مصالح الدين والبلاد، ويحافظ على الأوطان.

لقد كان الأحرى بابن صرد - رضى الله عنه - ألا تستفزه رغبات المتحمسين، ولا دموع البكائين، ولا هتافاتهم، «يالثارات الحسين» .. فإن عدده قليل وعدته ضعيفه .. وقد خذله أهل الكوفة، ولازالت أمامه خيارات أخرى غير القتال والحرب بإمكانه أن يسلكها ليتحقق ما يريد للإسلام والمسلمين.

لقد خرج التوابون طلباً لثأر الحسين رضى الله عنه فهل بلغوا ما أرادوا؟ .. لم يبلغوا شيئًا من ذلك، وإنما قتلوا وقتل قائدهم سليمان بن صرد الصحابى الجليل - رضى الله عنه-

لقد خرجوا يريدون يزيد وجيش الشام، فهل أدركوهم وأصابوا منهم ما تمنوا؟.. لم يحدث لهم شيء مما تمنوه، بل عادوا بنقيض ما طلبوا، لقد هزم جيشهم، وتفرق جمعهم، وازداد يزيد وجيش الشام قوة إلى قوتهم .. بل وأعادوا العراق إلى حظيرة الدولة الأموية.

لقد خرجوا كارهين ليزيد وبنى أمية، فأعلنوا الحرب، ولكن هل أذهبت الحرب هذه الكراهية ؟! وهل استرضت النفوس؟ أم أن الكراهية من كلا الفريقين للآخر قد اشتدت، والأمور تأزمت أكثر وأكثر حتى قادهم ذلك إلى حروب جديدة أكثر ضراوة وأشد فتكًا.

لقد أرقهم الدم الزاكى فى كربلاء فأريقت دماؤهم وأزهقت أرواحهم فى عين وردة .. ومات سليمان بن صرد - رضى الله عنه - كما مات الحسين - رضى الله عنه - ولحق جيش التوابين بشهداء كربلاء.

- فهل حقق التوابون ما أرادوا؟؟

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

رابعاً: قصة خروج عبد الله بن الزبير «رضى الله عنه»[1].

كانت علاقة ابن الزبير - رضى الله عنه - بمعاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - على أحسن ما تكون حتى شرع معاوية يأخذ البيعة لابنه يزيد، فعارض ابن الزبير - رضى الله عنه - ذلك ولم يبايع .. فلما توفى معاوية اهتم يزيد بأخذ البيعة من ابن الزبير .. وأرسل إلى واليه على المدينة بأخذ البيعة من ابن الزبير له.

- استمهله ابن الزبير وخرج إلى مكة، ولزم البيت الحرام .. وسمى نفسه العائذ بالبيت .. وتجمع حوله الناس لسخطهم على يزيد بعد مقتل الحسين -رضى الله عنه-

ولم يتمكن يزيد من أن يأخذ البيعة من ابن الزبير، كما لم يتمكن من القضاء على معارضته، مما أغضبه عليه .. وأقسم : «ألا يقبل بيعته حتى يأتى إليه فى قيد». وأرسل إلى عامله على المدينة عمرو بن سعيد ليأتيه به ..

- فأرسل عمرو بن سعيد بدوره إليه عمرو بن الزبير أخاه، وكان معاديًا لأخيه عبد الله بن الزبير ، ولكن ابن الزبير تمكن من هزيمة جيش عمرو بن سعيد، بل وقتل أخاه عمرو بن الزبير.

وبعد انتصار مسلم بن عقبة على أهل المدينة فى معركة الحرة، توجه مسلم بجيشه إلى مكة لحصار ابن الزبير، ولكنه توفى فى الطريق .. فتولى الجيش الحصين بن نمير السكونى، ووصل مكة لأربعٍ بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ وحاصر جيش الحصين بن نمير عبد الله بن الزبير أربعة وستين يومًا .. ونصب المنجنيق إلى الكعبة، وأشعل فيها الحريق.

وفى هذه الأثناء توفى يزيد بن معاوية فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ.

سرى خبر موت يزيد بن معاوية فى جيش الشام .. فطلب قائدهم الحصين بن نمير لقاء ابن الزبير .. فلما التقى به.

---

(١) هذه القصة مستقاة من «البداية والنهاية» لابن كثير (٨ / ٥٨٧:٧١٨) بتصرف وتاريخ العالم الإسلامي د. عبد الشافى عبد اللطيف ص ٤٩٤ وما بعدها بتصرف.

قال له الحصين: «إن يكن هذا الرجل قد هلك، فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هلم فلنبايعك، ثم اخرج معى إلى الشام فإن هذا الجند الذين معى هم وجوه أهل الشام وفرسانهم .. فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتؤمن الناس وتهدر الدماء التى كانت بيننا وبينك، والتى كانت بيننا وبين أهل الحرة».

لكن ابن الزبير - رضى الله عنه - لم يقبل، بل قال للحصين: «أنا أهدر تلك الدماء؟، أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة».

وأخذ الحصين يكلمه سرًا، وابن الزبير يجهر جهرًا .. وأخذ يقول: «لا والله لا أفعل».

فقال له الحصين: «قبح الله من يعدك بعد هذا داهية أو أريبًا .. قد كنت أظن أن لك رأيًا .. أكلمك سرًا وتكملنى جهرًا .. وأدعوك إلى الخلافة، وتعدنى القتل والهلكة».

- وبعد موت يزيد اضطرب أمر بنى أمية حتى إن مروان بن الحكم همَّ أن يأتى ابن الزبير فى مكة ويبايعه، لأن معظم الأمصار قد بايعته، الكوفة والبصرة ومصر وخراسان والشام، عدا الأردن فقد ظل على ولائه لبنى أمية.

رغم عرض الحصين بن نمير أن يخرج ابن الزبير معه إلى الشام، إلا أن ابن الزبير رفض وقرر المكث فى مكة، وأخذ يأخذ البيعة لنفسه ، وقد وردت روايتان عن التوقيت الذى أخذ ابن الزبير فيه البيعة لنفسه:

- الرواية الأولى: أنه أخذها فى مكة عقب مقتل الحسين رضى الله عنه - ٦١ هـ.

- وأما الرواية الثانية، وهى الأوثق فيقول خليفة بن خياط: «فى سنة أربع وستين دعا ابن الزبير إلى نفسه، وذلك بعد موت يزيد بن معاوية، فبويع فى رجب لسبع خلون من سنة ٦٤ هـ».

وكما جانب ابن الزبير الصواب ببقائه فى مكة ورفضه الخروج إلى الشام .. فقد جانبه الصواب مرة أخرى، حيث أمر بإخراج بنى أمية من المدينة عقب وفاة يزيد.

ولما تردد مروان ابن الحكم فى الخروج حثه ابنه عبد الملك بن مروان على الإسراع بالخروج قائلا: «اخرج على وجه السرعة، فإن هذا رأى لم يتعقبه ابن الزبير».

فخرج وخرج معه عبد الملك بن مروان ابنه، وتعقب ابن الزبير الرأى فعلم أنه قد أخطأ فوجه فى ردهم ففاتوه.

- خرج بنو أمية إلى الشام واجتمعوا على مروان بن الحكم بالجابية والذى استهل خلافته باستعادة الشام بعدما هزم أنصار ابن الزبير، بقيادة الضحاك بن قيس فى مرج راهط سنة ٦٤ هـ، وقيل فى المحرم ٦٥ هـ.

ثم استولى مروان بعدها على مصر، وولى عليها عبد العزيز بن مروان.

- وبعد عودة مروان إلى الشام وتخلصه من جيش التوابين، توفى فى رمضان سنة ٦٥ هـ .. وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان.

ابن الزبير وعبد الملك بن مروان

– تولى عبد الملك بعد أبيه، وشملت دولته الشام ومصر .. بينما شملت دولة ابن الزبير الحجاز والعراق .. وكان المختار بن عبيد قد ظهر فى العراق وطرد عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير من الكوفة..

– أدرك عبد الملك أن الصدام بين المختار وبين ابن الزبير بات وشيكًا لأن ابن الزبير لن يتركه يعبث بدولته فى العراق، فآثر أن يترك شأن المختار لابن الزبير خاصة أن المختار كان قد هزم جيش عبد الملك بقيادة عبيد الله بن زياد فى موقعة الخازر سنة ٦٧ هـ .. وبالفعل تحقق لعبد الملك ما أراد، فقد قضى مصعب بن الزبير على المختار وقتله عام ٦٧ هـ.

وبعد انتهاء أمر المختار بات الصدام بين عبد الملك بن مروان، وبين عبد الله بن الزبير وشيكًا .. وقرر عبد الملك أن يقود المعركة بنفسه، وقال: «إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى، وإنى بصير بالحرب شجاع بالسيف إن احتجت إليه، ومصعب شجاع من بيت شجاعة ولكن لا علم له بالحرب .. ومعه من يخالفه، ومعى من ينصح لى».

سار عبد الملك إلى العراق لينتزعه من ابن الزبير بعدما وطد حكمه فى الشام ومصر، فأعد جيشا بقيادة أخيه محمد بن مروان فنزل فى منطقة مسكن.

وسار مصعب بن الزبير بجيشه على مقدمته إبراهيم بن الأشتر .. فكتب إليه عبد الملك يدعوه إلى نفسه ويجعل له ولاية العراق إن أجابه ..

قال ابن الأشتر لمصعب : «إنه ما كان من أحد أيس منه منى .. ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلىَّ، فأطعنى فيهم فأضرب أعناقهم».

قال ابن الزبير: إذاً لاتناصحنا عشائرهم (أى تعادينا عائلاتهم).

قال ابن الاشتر: فأوقرهم حديداً، وابعث بهم إلى قصر كسرى، فاحبسهم هناك، ووكل بهم من إن غُلبت ضربت اعناقهم، وإن غَلبت مننت بهم على عشائرهم.

فقال: يا أبا النعمان «إني لفى شغل عن هذا .. يرحم الله أبا بحر، إنه كان ليحذرنى غدر أهل العراق كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه».

لم يكن عبد الملك يراسل أهل العراق فحسب وإنما كانوا يراسلونه أيضاً ويدعونه إليهم قبل أن تأتيهم كتبه .. ولقد ذكر المهلب بن أبى صفرة ذلك لمصعب بن الزبير. . فقال له: «أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا تبعدى عنك» .. وبالفعل تخلى قواد مصعب بن الزبير عنه وانضموا إلى جيش عبد الملك.

كان عبد الملك حريصاً ألا يقاتل مصعباً لمودة بينهما وأرسل إليه يقول: «اقرىء ابن أختك السلام، وقل له يدع دعاءه لأخيه .. وأدع دعائى إلى نفسى ويجعل الأمر شورى» .. فقال مصعب للرسول : «قل له السيف بيننا».

ولم يكتف عبد الملك بذلك وإنما حاول مرة أخرى، فأرسل أخاه محمد بن مروان إلى مصعب يقول له : «إن ابن عمك يعطيك الأمان».

فقال له مصعب : «إن مثلى لا ينصرف عنه مثل هذا الموقف إلا غالباً أو مغلوباً».

دارت المعركة .. وبدت خيانة أهل العراق فلقد انهزم عتاب بن وقاء، وكان ممن كاتبهم عبدالملك، وانهزم عتاب بمن معه من الجنود، بينما صبر إبراهيم بن الأشتر قائد جيش مصعب حتى قتل.. وخسر مصعب بموته خسارة شديدة حتى إنه كان إذا اشتد عليه الأمر يقول: «يا إبراهيم ، ولا إبراهيم لى اليوم».

وتخلى أهل العراق عن مصعب وخذلوه حتى لم يبق معه سوى سبعة رجال.. ولكن مصعب ظل يقاتل حتى اثخنته الجراح ثم قتله زياد بن ظبيان وكان مقتله فى جمادى الآخرة ٧٢ هـ.

وعادت العراق إلى حظيرة الدولة الأموية.. وولى بشر بن مروان عليها.

نهاية ابن الزبير ٧٣ هـ

بهزيمة مصعب بن الزبير وقتله، آذنت دولة ابن الزبير بالانتهاء .. فقد انحصرت فى الحجاز وأصبحت بحاجة إلى المال والرجال، ولم تعد تقوى على الصمود.

– وقرر عبد الملك أن يتوجه إلى الحجاز للقضاء على ابن الزبير نهائيًا .. وبينما يحاور رجاله فى شخص يبعثه إليه .. قام الحجاج بن يوسف الثقفى فقال له: «ابعثنى إليه يا أمير المؤمنين، فإنى رأيت فى المنام كأنى ذبحته وجلست على صدره وسلخته، .. فقال : أنت له.

توجه الحجاج فى عشرين ألفًا من أهل الشام إلى الحجاز، فنزل الطائف وأخذ يرسل بعض جنوده لقتال ابن الزبير .. ودارت الاشتباكات فى عرفة .. وكانت دائماً فى مصلحة جيش الحجاج.

وفى ذى القعدة، زحف الحجاج من الطائف على مكة، وحاصر ابن الزبير .. ونصب المنجنيق إلى الكعبة.. فلما أهل ذو الحجة لم يستطع ابن الزبير الحج، وحج بالناس عبد الله بن عمر، وطلب من الحجاج أن يكف عن ضرب الكعبة لأنه قد منع الناس من الطواف، فامتثل الحجاج بن يوسف.

وبعد فراغ الناس من الفريضة .. نادى الحجاج فى الناس أن يعودوا إلى بلادهم، لأنه سيعود إلى ضرب البيت الحرام بالحجارة.

وبدأ يضرب الكعبة .. وشدد على ابن الزبير، وتحرج الموقف .. وانفض أصحاب ابن الزبير عنه حتى ولديه حمزة وخبيب، فقد ذهبا إلى الحجاج وطلبا الأمان لنفسيهما.

فلما رأى ابن الزبير ذلك، دخل على أمه، وقال : «يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى .. ثم خرج من عندها، وذهب إلى القتال فقتل من يومه فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ. وصلبه الحجاج وكان ذلك يوم الثلاثاء[١].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦٩

قتل ابن الزبير فى عهد عبد الملك بن مروان وهو يعرف فضله ومكانته.

- قال يحيى الغسانى : لما نزل مسلم بن عقبة المدينة، دخلت مسجد رسول الله ﷺ فجلست إلى جنب عبد الملك .. فقال لى عبد الملك: أمن هذا الجيش أنت؟ قلت : نعم .. قال : ثكلتك أمك، أتدرى إلى من تسير؟ إلى أول مولود ولد فى الإسلام .. إلى ابن حوارى رسول الله ﷺ(١) .. وإلى ابن ذات النطاقين .. وإلى من حنكه رسول الله ﷺ (٢) .. أما والله إن جئته نهارًا وجدته صائمًا .. ولئن جئته ليلا لتجدنه قائمًا .. فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله جميعًا فى النار .. فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك، وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه.(٣).

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن عروة بن الزبير، وفاطمة بنت المندز بن الزبير.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٧٣

عبر وعظات من خروج ابن الزبير «رضى الله عنه».

وبعد أن وقع ما وقع .. وبعد ما مضى السيف فيمن مضى .. وبعد أن نزل القضاء بما قضى .. بعد أن ضربت الكعبة بالأحجار .. وبعد أن حصر الناس عن الطواف .. وبعد اشتعال الحريق بالمسجد الحرام .. وبعد أن رأينا ابن الزبير مصلوبًا فى مكة يبكيه النساء والولدان .. نعود ونقول؟

أولاً: إننا نعرف فضل ابن الزبير رضى الله عنه جيداً .. ونعترف له بهذا الفضل، ونحبه ونواليه، وندعوا له بالرحمة والرضوان ونحن أيضًا نبغض قاتليه ونبرأ من فعلهم، ونرى قتلهم لابن الزبير رضى الله عنه .. جريمة نكراء، وفعلة شنعاء ، كان من الممكن ألا تقع.

لقد كان ابن الزبير – رضى الله عنه –من أفضل العباد ، كان صوامًا قوامًا قارئًا لكتاب الله .. كما كان فارسًا شجاعًا ، وبطلا مقدامًا.

– كان ابن الزبير رضى الله عنه – صحابيًا من صحابة رسول الله ﷺ ، وأبوه الزبير – رضى الله عنه – حوارى رسول الله ﷺ .. وأمه أسماء ذات النطاقين رضى الله عنها وجده الصديق أبو بكر – رضى الله عنه.

معاذ الله أن نقدح فى ابن الزبير أو أن نجحد فضله وقد حنكه رسول الله ﷺ بيده .. ومعاذ الله أن نشكك فى تقوى ابن الزبير وورعه .. وقد سرى دم النبى ﷺ فى عروقه، وخالطت سُنته قلبه.

لقد كان ابن الزبير حريصًا على خير الإسلام وعلى مصلحة المسلمين .. وكان رافضًا للظلم ثائرًا فى سبيل الحق لا عن هوى وغواية.

– إننا نحب ابن الزبير – رضى الله عنه –وأين نحن منه ومن فضله، وهو الصحابى ابن الحوارى؟ .. وأين الثرى من من الثريا؟!

– ورغم هذا الحب والتقدير لمكانة ابن الزبير وفضله .. نسأل كما سألنا من قبل كثيرًا..

ثانيًا : ماذا لو بايع ابن الزبير – رضى الله عنه – يزيد بن معاوية؟
– ماذا لو دخل فيما دخل فيه الناس؟!

- ماذا لو أنه استجاب لنصح الناصحين له بعدم الخروج إلى مكة ابتداءً، وعدم التعرض للحرب والقتال فى النهاية؟!

إن كان ابن الزبير قد رفض البيعة ليزيد أيام أبيه .. فماذا لو أنه بايعه بعدما اجتمع الناس على يزيد ورضوه خليفة لهم وإمامًا؟!

ماذا لو اعتبره ابن الزبير أميرًا متغلبا وصل إلى الحكم بحد السيف والقوة والقهر حتى انعقد له الأمر ودان له الناس؟!

أما كان ذلك كافيا لأن يبايعه ابن الزبير ويقبل إمارة المتغلب؟!

- أما كان ذلك كافيا لقبول ابن الزبير بالواقع .. وأن يرضى لنفسه ما رضيه المسلمون لأنفسهم ، ويبايع كما بايع الناس؟

- نعم، كان ذلك كافيا .. ولكن ابن الزبير - رضى الله عنه - رفض البيعة ليزيد .. رفضها فى زمن معاوية، ورفضها بعد موته ودخول الناس فى طاعة يزيد بما فيهم كبار الصحابة.

- ليت ابن الزبير لما رفض البيعة لزم البيت الحرام للعبادة والصلاة وانشغل بذلك عن هموم الحكم والحكام وكفى.

لكن ذلك لم يحدث، وإنما رفع ابن الزبير لواء المعارضة المسلحة ليزيد، وأخذ البيعة لنفسه حتى ضاق يزيد بأمره، وصمم على أخذ البيعة لنفسه من ابن الزبير أو التخلص منه.

ثالثًا: نعم كان يزيد ظالمًا بسبب قتل الحسين - رضى الله عنه - وآل بيته .. ورغم أنه لم يأمرهم بقتله، إلا أنه لم يعاقب الذين قتلوه.

- ولكن ، هل الوسيلة الوحيدة لدفع الظلم واسترداد الحقوق المغصوبة هى الثورة وإعلان الحرب والقتال ؟!

- وهل هذه الثورة ستعيد الحسين وآل بيته إلى الحياة؟!

- وهل يمكنها معاقبة يزيد على خطئه، وهو الخليفة ويملك مقدرات الدولة، ويتصرف بكامل

حريته فى مواردها .. ويسير جيوشها لأى جهة شاء، حتى وإن كان لحصار البيت العتيق أو غزو المدينة المنورة؟!

لا شك أن الثورة المسلحة ليست هى الخيار الوحيد.

ولا شك أيضًا أن ابن الزبير لن يقدر على محاسبة يزيد ولا غيره من الخلفاء، وهم بهذه الحالة من القوة.

لقد كانت هناك بدائل أخرى وخيارات كثيرة تحقق المقصود، وتكون أجدى وأنفع وأكثر جلبًا للمصالح ودرءًا للمفاسد.

- إن هذه الثورة مهما بلغت لن تحقق المقصود منها، إنما سيتفاقم الأمر ويتسع الرتق، ويشتد الخطب، ويبقى الحال هو الحال، بل يسوء أكثر وأكثر، وهذا ما رأيناه جليا فى قصة ابن الزبير - رضى الله عنه-

رابعًا : لقد توجه عمرو بن الزبير لقتال أخيه عبد الله فى مكة .. وتقابل الأخوان كلاهما يحارب الآخر دون مراعاة لرحم ولا قرابة .. ثم تمكن عبد الله من قتل أخيه وهزيمة جيش يزيد الذى سار معهم لقتال أخيه عبد الله.

لكن : هل انتهى الأمر عند ذلك؟!

أم أن الحصين بن نمير قائدجيش الشام توجه بعدما انتهك الجيش حرمة المدينة المنورة فى معركة الحرة، توجه إلى مكة وحاصر ابن الزبير فى المسجد الحرام، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وأشعل فيها النيران .. واستمر الحصار والقصف لم يفكه أو يوقفه إلا موت يزيد عام ٦٤ هـ.

بل إن رفع الحصار عن ابن الزبير لم يدم طويلا .. فسرعان ما عاد أشد مما كان، وسرعان ما قصفت الكعبة مرة أخرى.

خامسًا: لقد اختار ابن الزبير الحرب فتجرأ أهل الشام على قصف الكعبة، فهم يرون ابن الزبير خارجًا عن الطاعة عاصياً للخليفة لجأ إلى البيت يحتمى فيه. ولكن البيت لا يعيذ عاصيا، حتى وإن كان البيت مثابة للناس وأمنًا، وإن كان من دخله كان آمنًا .. ولكن كل ذلك فى نظرهم لا يعد مبررًا لترك ابن الزبير مفارقا للجماعة يدعو الناس إلى بيعته.

لقد ظل الحصار مضروبًا على ابن الزبير - رضى الله عنه - حتى مات يزيد، وكانت فرصة عظيمة للخروج بالأمة من المأزق، والسعى لإنهاء الحصار، والعمل على التصالح مع أهل الشام، ومع بنى أمية، ونسيان الماضى وتضميد الجراح، وإيقاف حمامات الدم التى سالت، وإعادة الهيبة والقداسة للمسجد الحرام والكعبة المشرفة .. ولكن كل ذلك لم يحدث، بل حدث العكس.

لقد فوت ابن الزبير الفرصة فاستعرت الحرب من جديد، وتوقدت العداوة مرة أخرى، وانقسمت الأمة تارة بعد أخرى.

- قام ابن الزبير بطرد بنى أمية من المدينة، فزاد ذلك غضبهم عليه بسبب مالقوه من إهانة ، وهم سادات الناس وزعماؤهم، فكيف يطردون بهذه الصورة المزرية، ويخرجون بهذه الطريقة المهينة؟

إن من أهم أخطاء ابن الزبير معاملته لبنى أمية معاملة واحدة لم يفرق بين محسن ومسىء .. وإنما أخذ الكل بذنب البعض .. وعاقب بنى أمية بجريرة يزيد حتى بعد موته.

- إن الإسلام لا يقر تعميم العقوبة ولا يرضى أن يؤاخذ أحد بذنب الآخرين لكنه أرسى قاعدته العظيمة : «ألا تزر وازرة وزر أخرى».. والتى يسيمها الآن رجال القانون بعد عدة قرون بقاعدة: «شخصية العقوبة».

- ماذا جنى بنو أمية حتى يعاقبهم ابن الزبير بذنب يزيد؟!

- وإذا كانت مؤاخذة بنى أمية جميعًا خطأ وقع فيه ابن الزبير - رضى الله عنه - فإن إخراجهم إلى الشام كان خطأ استراتيجيًا فادحًا حيث اجتمعوا هناك على مروان بن الحكم فى مؤتمر الجابية عام ٦٤ هـ.

لقد نصب بنو أمية مروان عليهم أميرًا ، وأخذوا يهاجمون ابن الزبير بل وهزموا أنصاره بقيادة الضحاك بن قيس فى معركة مرج راهط.

حارب بنو أمية ابن الزبير، وكان بإمكانه احتواءهم وضمهم تحت لوائه، وأن يحفظ لهم مكانتهم، وينسى ما كان منهم، وخاصة أنه قد اضطرب أمرهم بموت يزيد حتى إنَّ مروان هم بالذهاب إلى ابن الزبير ومبايعته.

كما كانت الفرصة مواتية لابن الزبير ان يجمع الناس حوله ويوقف المعارك ويحقن الدماء، ولكنه لم يفعل.

ولم يكن إخراج بنى أمية هو الخطأ الوحيد لابن الزبير، وإنما ضيق ابن الزبير أيضًا على بنى هاشم وحبسهم بل ولم يرع مكانة ابن عباس - رضى الله عنه - ولا محمد بن الحنفية، حتى أرسل ابن الحنفية إلى المختار بن عبيد يستصرخه ليرفع عنه حبس ابن الزبير.

لم يرتكب بنو هاشم ذنبًا غير أنهم لم يبايعوا ابن الزبير، ولم يدخلوا فى طاعته ضد بنى أمية وهم علماء الأمة وسادتها.

بل إنَّ ابن الزبير - رضى الله عنه - منع محمد بن الحنفية بعدما خرج إلى الشام من الطواف بالبيت وأداء العمرة، وأرسل إليه من الجنود من يحول بينه وبين المناسك.

- لماذا يستعدى ابن الزبير -رضى الله عنه - بنى أمية ضده؟!

- لماذا يستثير بنى هاشم عليه؟!

- لماذا يكثر أعداءه ويؤلب الناس ضده؟!

- إنها سياسة تجبيه الأعداء، وطرد الأصدقاء .. وهى بداية الفشل لكل قائد.

إن السياسى الناجح دائمًا يقلل هجمات العداء .. ويضيق مساحات الخلاف .. ويتجاوز عن الهنات والزلات .. ويبذل المعروف للناس .. ويحفظ لأهل الفضل فضلهم .. كل ذلك يتألفهم به، ولا يعطيهم الفرصة لخصومته.

سادسًا : إذا كان الصواب قد جانب ابن الزبير بإخراجه بنى أمية من المدينة فاجتمعوا على حربه .. فقد جانبه الصواب مرة أخرى حين عرض عليه الحصين بن نمير قائد جيش الشام بعدما توفى يزيد، أن يبايع جيش الشام له بالخلافة، ويخرج معهم إلى الشام فهم وجوه الشام وفرسانه، ولن يفترق عليه أحد.

طلب الحصين من ابن الزبير - رضى الله عنه - أن يهدر الدماء التى سالت وينسى المعارك التى دارت، ويصبح من الآن خليفة تخضع له العراق والحجاز ومصر والشام وخراسان.

فكان بإمكان ابن الزبير - رضى الله عنه - أن يقبل ذلك العرض الذى يجمع الأمة ويغمد السيوف ويؤسس لصلح عظيم بين معسكرين كبيرين ، معسكر ابن الزبير بالحجاز، ومعسكر أهل الشام برجالهم وسلاحهم.

رفض ابن الزبير عرض الحصين ذلك، وأصر على الثأر للقتلى حتى إن الحصين يتعجب من هذا الموقف قائلاً: «قبح الله من يعدك بعد هذا داهية أو أريبًا .. قد كنت أظن أن لك رأيًا، أكلمك سرًا وتكلمنى جهرًا .. وأدعوك للخلافة وتعدنى القتل والهلكة».

إن القائد العظيم هو الذى يغتنم المواقف ليرحم الناس ويحقن دماءهم، وطالب الملك يقبله إذا جاءه من غير قتال.

- فكيف وقد رفض ابن الزبير كل شىء إلا الحرب؟!

- كيف يؤثر البقاء بالحجاز على فقرها وقله عددها وسلاحها، ويرفض الخروج إلى الشام حيث المال والسلاح والمنعة، خاصة وقد طلبوه للخروج معهم.

- هذه سلسلة من الأخطاء وقع فيها ابن الزبير، كل خطأ فيها كفيل أن يطيح به ويقضى على ثورته .. فكيف وقد اجتمعت كلها؟

- ولسنا ندرى لماذا أصر ابن الزبير - رضى الله عنه - على الحرب؟!

- إن كان يريد الخلافة، فقد عرضها عليه جيش الشام.

- وإن كان يريد خلع يزيد فقد مات يزيد وأصبح بإمكانه إقامة العدل بنفسه.

وإن كان قد خرج ثأرًا للحسين - رضى الله عنه - وآله فقد واتته الفرصة للوصول إلى الخلافة وإحقاق الحقوق.

وإن كان قد خرج غضبًا لحرمة المدينة المنورة التى انتهكت .. فقد سنحت له الظروف أن يحفظ حرمة الكعبة، ويؤمن الحجيج، ويطفىء النيران من المسجد الحرام.

لكن ابن الزبير ظل يحارب حتى قتل أخوه مصعب، وأضاع العراق من يده ثم جاءه الحجاج فحاصره وأنهى ثورته هذه النهاية الأليمة.

سَّابعًا: إن قصة ابن الزبير تعلمنا بوضوح درسًا عظيمًا .. ما أحرانا أن نتعلمه ونستفيد منه.

من الممكن أن يكون المرءُ صاحبَ تقوى وصلاح، أو أن يكون صوامًا قوامًا، أو ذا أخلاق فاضلة وسجايا نبيلة .. ولكن رغم تقواه وعلمه، ورغم عبادته وأخلاقه قد لا يصلح لقيادة الناس، ولا يكون مناسبًا للملك والإمارة، وسياسة أمور الرعية، وتدبير شئونهم وإصلاح حياتهم.

نحن لا نذكر هذه المعانى من عند أنفسنا، ولا من وحى عقولنا لكننا تعلمنا هذا الدرس من حديث رسول الله ﷺ حين قال لأبى ذر - رضى الله عنه - وقد سأله الإمارة «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة»(١).

- إن قول الرسول ﷺ لأبى ذر : «إنك ضعيف». لا يعنى ضعفًا فى الإيمان والتقوى والصلاح، فقد كان أبو ذر - رضى الله عنه - مشهودًا له بالتقوى والزهد والورع .. إنما يعنى الضعف عن قيادة الناس وحكمهم وتولى شئونهم .. إنك ضعيف عن الملك والإمارة.

- ذلك لأن الملك أو الرئاسة يحتاج لملكات خاصة، بالإضافة إلى التقوى والصلاح والعلم، وهذه الملكات لا تتوفر لكثير من الناس.

لو تأملنا قصة ابن الزبير لتبين لنا ذلك، فقد رفض من العروض وضيع من الفرص ما لو قبل بعضها وأحسن استغلاله لساس من الناس بما يصلحهم فى دينهم ودنياهم .. ولحقن دماءهم دون قتال، ولأصبح بإمكانه حل جميع مشاكله والنهوض بمصالح الأمة دون حرب وسلاح .. ولكن:

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشـــــاء».

ثامنًا: كما فوت عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - هذه الفرصة على نفسه وعلى الأمة .. فإن مصعبًا أخاه لم يكن بأفضل منه حالاً .. لقد كان عبد الملك بن مروان لا يريد قتال مصعب لمودة بينهما .. وقد عرض عبد الملك أن يترك الدعاء لنفسه بالخلافة مقابل أن يترك مصعب الدعاء لأخيه ، وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين.

- رفض مصعب ذلك العرض وصمم على الحرب قائلاً : «بل السيف بيننا».

---

(١) رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه.

- فإذا كان الرسول ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مال لم يكن إثما.

- وإذا كان محمد ﷺ رسول الرحمة قبل أن يكون نبى الملحمة.

وإذا كان الله يقول: «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا».

- ورغم قول القرآن الكريم : «والصلح خير».

- رأينا مصعبًا يرفض كل هذه الرخص، بل الواجبات، ويضيق على نفسه واسعًا، ويختار السيف ليفصل بينه وبين المسلمين حتى اشتد به الأمر فنادى يستغيث بقائده إبراهيم بن الأشتر فيقول : «يا إبراهيم .. ولا إبراهيم لى اليوم».

- لقد قتل إبراهيم ولم يجبه، وكان من الممكن أن يجيبه عشرات بل مئات الآلاف لو أنه جنح إلى السلم وفكر بغير عقلية الحرب.

رفض مصعب بن الزبير خيار السلام فمات مثخنا بجراحه فى جمادى الآخرة ٧٢ هـ. ثم قتل أخوه عبد الله بن الزبير فى جمادى الأول عام ٧٣ هـ.

- مات الثائران ولم يتحقق لهما ما أرادا .. وعادت العراق ومصر وخراسان والحجاز إلى دولة بنى أمية كما كانت .. وها نحن نمر على ابن الزبير - رضى الله عنه - وهو مصلوب فى مكة، يقف الناس أمام جثمانه يترحمون عليه .. وتضج البيوت بالبكاء لقتله، كما يبكيه جميع العقلاء والحكماء وأجيال المسلمين.

تاسعًا : إن للمساجد ودور العبادة والأماكن التى تقام فيها الشعائر ويعبد فيها الله تعالى مكانة عظيمة وقداسة عالية عند الله وعند الناس.

- لقد ألقى الله تعالى عليها المهابة والوقار فى قلوب جميع الناس، أبرارًا كانوا أو فجارًا، عصاة فاسقين أو أتقياء صالحين.

فمن ذا الذى لا يقدس المساجد؟! ومن ذا الذى لا يعرف حرمتها؟!

- من ذا الذى يقدر على الإفساد فيها أو انتهاك حرمتها أو الحط من مكانتها؟!

– إن الإنسان ليجد فى نفسه حاجزاً يمنعه من التعدى عليها، ورادعًا يردعه عن الإساءة إليها .. حتى وإن لم يكن لهذه المساجد حراسة بشرية تحميها أو تحيطها بسياج أمنى شديد.

إن الله تعالى جعل حماية هذه الأماكن وضمن حراستها بجنود معنوية وضعها فى قلب كل إنسان وغرسها فى نفسه تحمله على تعظيمها وعدم الاجتراء عليها، حتى وإن كان المرء عاصيا بل وربما كان لا يدخل هذه الأماكن ولا يصلى فيها.

إن الله أفاض على مساجده عظمة من عظمته، وألبسها رداءً من جلاله.

وإذا جعل الله لبيوته ومساجده هذه المنزلة العظيمة، فحرى بالمسلمين عامة وحملة دعوته خاصة الذين نذروا أنفسهم لإعلاء شأن مقدساته .. حرى بهؤلاء أن يزيدوا من تعظيم هذه الأماكن .. ويرفعوا من قدرها وتقديسها فى نفوسهم ونفوس غيرهم بكل وسيلة وكل سبيل.

إن على أبناء الدعوة الإسلامية أن يمنعوا مساجد الله تعالى من كل ما قد يؤدى إلى الاستهانة بقدسيتها أو التعدى عليها.

عليهم أن يفوتوا الفرصة ويسدوا الذرائع التى توصل إلى إهدار كرامة المساجد، أو ترويع المصلين فيها، أو اجتراء العصاة على انتهاك حرمتها أو اقتحامها.

لقد لجأ ابن الزبير – رضى الله عنه – إلى المسجد الحرام أشرف البقاع وأول بيت وضع للناس، تعظمه العرب فى الجاهلية، ويعظمه كذلك المسلمون .. فماذا كانت النتيجة؟

لقد اجترأ جيش الشام على قصف الكعبة مرتين، مرة فى عهد يزيد وأخرى فى عهد عبد الملك بن مروان .. ومنع الناس من الطواف وسفكت الدماء حول البيت.

نعم هذه معصية كبيرة وذنب عظيم وجرأة شديدة على محارم الله، لا يجوز لأحد الإقدام عليها .. ولا عذر له فيما يفعله بها من آثام .. ولكن الجيوش ساعة الحرب والقتال لا تراعى حرمة، ولا تعرف مقدسات .. ولا تفرق بين مسجد وغيره، مادام المقاتلون قد أووا إليه وجعلوه مقرًا لنشاطهم المسلح.

إن نفوسنا ليملؤها الحزن حينما نسمع أو نشاهد نفرًا من أبناء الإسلام قد سيروا المظاهرات فى

موسم الحج ومناطق الشعائر ضد بعض الحكومات .. فيجعلون الطواف حيث الخشوع والذل والتضرع إلى الله مسرحًا للهتافات والضجيج ورفع الشعارات الثورية والتشهير بالحكومات .. مما يضطر السلطات المعنية بأمن الحج والحجيج إلى التدخل لتفريق المتظاهرين فيحدث الصدام والاقتتال فى البلد الحرم الذى (من دخله كان آمنًا).

إن قلوبنا لتعتصر ألمًا ونحن نسمع أو نرى من أبناء الإسلام من يقود العربات المحملة بالمتفجرات والأسلحة فى مكة، وكلنا يحذر أن يفاجأ العالم كله بالسيارات وقد انفجرت فى البلدة الطيبة التى جعلها الله (مثابة للناس وأمنا).

إننا لنعجب أشد العجب عندما نسمع عن ثلة قليلة من الشباب جعلوا مساجد الله مخزنا للسلاح والسنج والجنازير، أو مكانًا لإخفاء المنشورات المعادية للحكومات والتى تحرض على العنف والقتال .. مما يحمل هذه الحكومات على اقتحام هذه المساجد وتفتيشها للعثور على السلاح أو ضبط المنشورات، أو القبض على أحد الهاربين وقد اختفى داخل المسجد.

إن قدسية المساجد ومكانتها تهتز فى قلوب الناس عندما يسمعون أو يشاهدون هذه التصرفات .. ويقف الناس يتساءلون:

- هل جعلت المساجد لمثل هذا ؟ .. هل تم بناؤها لتخزين السلاح؟!

أو إيواء الهاربين أو التدريب على أعمال العنف؟!

- إن الحملات تنطلق بسبب هذه التصرفات على المساجد وتصف بيوت الله بأنها أوكار للعنف أو منابع للإرهاب .. ثم يطالبون بهدم هذه الأوكار أو إغلاقها، وتجفيف منابع الإرهاب وفرض الرقابة عليها .. وتبدأ الحكومات تمارس دورها وتفرض وصايتها فيقع الصدام، وتقتحم بيوت الله .. ويتم ضبط السلاح وترويع المصلين والقبض على الهاربين .. ومضايقة المصلين أو تفتيشهم أو القبض عليهم.

بل إننا رأينا شبابًا قد قتلوا على أعتاب المساجد أو فى محاريب الصلاة وما حدث ذلك إلا بعدما حولها بعض الشباب المتحمس مسرحًا للنشاط العسكرى وعملياته المسلحة ضد الحكومات .. فأخرجوها بذلك عن دورها الرئيسى فى إقامة الشعائر والعبادات والدعوة إلى الله تعالى.

إنما شرعت المساجد للذكر والتسبيح والحمد والصلاة لله والذل بين يديه ومناجاته فى النهار وفى الأسحار.

إنما شرعت المساجد لنشر العلم الصحيح والدعوة الصحية .. ولم تشرع للحرب والقتال وإيواء الهاربين أو إخفاء السلاح والمنشورات، أو جعلها غرفة عمليات للتخطيط وأعمال العنف والقتال.

إن على أبناء الدعوة الإسلامية أن ينزهوا مساجد الله تعالى عن مثل هذه الأعمال حتى يحفظوا لها قداستها ولا يجترىء عليها جاهل أو صاحب هوى ولا يطالب بغلقها ومراقبتها أحد، ثم نبكى بعد ذلك لأن المساجد قد اقتحمت أو أن الحكومات تضيق عليها.

لابد أن نكون صرحاء، ونقولها فى شجاعة ووضوح:

- يجب ألا تتخذ المساجد مركزًا للنشاط العسكرى.

- لا يصح أن نجعل بيوت الله مكانًا للتخطيط أو التدريب على فنون القتال.

- ليس من المقبول أن نوقف بيوت الله لإيواء الهاربين.

- ليس من العقل ولا من الدين تحويل المساجد إلى مخازن للسلاح أو المنشورات المحرضة على أعمال العنف.

- إن الواقع يفرض علينا أن نقصر بيوت الله على دورها الصحيح الذى قامت من أجله وهو الصلاة والذكر ونشر العلم وقراءة القرآن والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- إن الخروج بالمساجد عن دورها الذى شرعت لأجله يجعلها عرضة للاقتحام أو التفيش أو الإغلاق أو الهدم، مما يمنع الناس من التردد عليها، ويحرم المجتمع من الخير والنور الذى تقوم بنشره.

- إن الخروج بالمساجد عن دورها الأساسى يذهب بمكانتها فى قلوب الناس ويجعلها دائمًا موضع شك وريبة مما يسهل التحرش بها وبروادها.

- كل ذلك يحدث وأكثر منه متى استخدمنا المساجد فى غير دورها الصحيح، متى جعلناها مأوى للحرب أو التخطيط للقتال.

ومرة أخرى نعود ونسأل:

- هل قصف جيش الشام الكعبة بالأحجار إلا بعدما تحصن ابن الزبير - رضى الله عنه - بالمسجد الحرام؟

- هل اشتعلت الحرائق بأستار الكعبة إلا بعدما تحول الحرم الشريف مسرحًا للقتال مع الأمويين؟!

- هل منع الناس من الطواف بالبيت إلا عندما سلت السيوف ودارت المعارك فى عرفة وحوصر المسجد ومن فيه؟!

ثم نسأل:

هل تقتحم المساجد وتحطم أبوابها وتكسر منابرها وتشتعل النار فى فرشها ويروع المصلون ويختنق الناس داخلها بالغازات الخانقة والمسيلة للدموع، ويقتل الشباب على أعتابها أو فى محاربها .. هل يحدث شىء من ذلك إلا بعدما يحولها نفر قليل من المتحمسين بؤرة لأعمال القتال أو التحريض عليه أو التخطيط وإيواء الهاربين بداخلها؟!

- هل حدث ذلك إلا بعدما خرج بها بعض الشباب عن دورها الصحيح؟!

- هل لو ظلت المساجد قاصرة على الصلاة والعلم والذكر وقراءة القرآن والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. هل تجد الحكومات مبررًا لاقتحامها؟!

- لو لم يلجأ إليها الهاربون ولم توضع فيها السنج والجنازير والبنادق . هل يجترىء أحد مهما كان عصيانه على اقتحامها وانتهاك حرمتها وتفتيشها أو إغلاقها؟!

- قد يعترض علينا بعض الناس من حسنى النية قائلين: «إن المسجد فى عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه من بعده .. كان يستخدم لتنظيم الجيوش وتجهيز السرايا وبعث المجاهدين فى سبيل الله .. فكيف تمنعون الشباب الغيور على دينه من ذلك .. وقد فعله من هو خير منا جميعًا .. النبى ﷺ وخلفاؤه من بعده؟!

وللرد نقول:

أما القول باستخدام الرسول ﷺ وخلفائه المساجد لتجهيز الجيوش وإرسال السريا .. فهذا حق لا نختلف عليه، وليس بشأنه أى جدال.

لكن من أراد أن يفعل بالمساجد هذه الأيام ما فعله الرسول ﷺ وخلفاؤه - رضوان الله عليهم - من تدريب الشباب على القتال، أو تخزين السلاح أو رسم الخطط العسكرية، قياسًا منه على فعل النبى ﷺ وخلفائه، وعلى مسجد النبى ﷺ .. فهذا مالا نوافق عليه ولا نقبل به ولا نرضى عنه وذلك لعدة أمور منها:

(١) أما المانع الأول من قياس مساجد اليوم على مسجد الرسول ﷺ لاستخدامها فى النشاط العسكرى فهو :

- أنَّ الذى كان يستخدم المسجد النبوى لتجهيز الجيوش هو رئيس الدولة متمثلاً فى النبى ﷺ أو خلفائه من بعده .. وأنَّ للحاكم الحق أن يضع من السياسات ما يراه مناسبًا لظروفه وعصره وله من السلطات ماليس لغيره من آحاد الناس.
- فكيف يسوى الآحاد أنفسهم برئيس الدولة؟ وكيف يستلبون سلطات الحكام ويمنحونها لأنفسهم مع أنهم ليسوا حكامًا وليسوا ممكنين؟!
- إن الحكومات على عهد رسول الله ﷺ وخلفائه من بعده، كانت تستخدم المساجد فى التجهيز للحرب وهذا حقها .. أما حكومات هذه الأيام فهى التى تمنع استخدام المساجد فى ذلك وهذا أيضًا حقها.

إن حكومات اليوم فى كل الدول الإسلامية لا تستخدم المساجد أو دور العبادة فى حروبها مع الدول الأخرى، حتى لا تقصف هذه المساجد من قبل تلك الدول بحجة أنها مكان للأنشطة العسكرية.

- لقد استقر الأمر فى العصر الحديث على أن التخطيط للحروب والإعداد لها يكون فى مراكز القيادة العسكرية التى تتمتع بمواقع منيعة فى وسط الجبال أو تحت الأرض.
- أما أن تدار الحروب من المساجد فهذا مالا تعرفه الدول ولا تقره الحكومات فى هذا الزمان.

- وبهذا يتضح أن القول بممارسة النشاط العسكرى من خلال المساجد فى هذه الأيام قياسًا على ما فعله رسول الله ﷺ وخلفاؤه - رضوان الله عليهم - لا يناسب هذا الزمان ولا يتفق معه.

(٢) إن دولة الإسلام فى عهد النبى ﷺ كانت قائمة، وكذلك فى عهد خلفائه .. بل كانت قوية تدافع عن أرضها ومساجدها وتحافظ على مقدساتها ولا يجرؤ أحد أن يقربها فضلا عن اقتحامها أو إحراقها.

أما شباب الحركة الإسلامية اليوم فلا يقدرون على حماية أنفسهم، فكيف يقدرون على الدفاع عن تلك المساجد؟ أم أنهم يريدون استخدام المساجد فى نشاطهم العسكرى فإذا جاءت الحكومات للإمساك بهم تركوا المساجد للحكومات تقتحمها وولوا هاربين؟!

- لا شك أن هؤلاء الشباب باعتقادهم القدرة على حماية المساجد قدجافوا الحقيقة وجانبوا الصواب .. وإن قالوا نستخدمها ثم نتركها هاربين عند اقتحامها .. نقول لهؤلاء: إن كلا الفريقين قد أخطأ.

- لقد أخطأ هؤلاء الشباب بإعطائهم الذريعة للحكومات أن تقتحم المساجد.

- ولقد أخطأت هذه الحكومات باقتحامها بيوت الله.

- نقول ذلك ولا نبرىء أحدًا انتهك حرمات الله أو اعتدى على مساجده، فهذه جريمة عظيمة ومعصية كبرى لا يحل لأحد الإقدام عليها.

عاشرًا: لماذا صلب الحجاج عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - بعدما قتله؟!

- وهل كان لابد من صلبه إياه؟!

- لا شك أن الحجاج بصلبه لابن الزبير قد أسرف فى ظلمه، وتمادى فى جرمه وتجاوز فى عصيانه .. ولسنا نجد له أدنى مبرر لارتكاب هذه الفعلة الشنيعة .. إن كان الحجاج يريد بث الرعب فى قلوب الناس وتخويفهم من معارضته، فبئس الوالى هو .. وأى خير فيمن يروع مواطنيه .. وإنما جعل الإمام جنة وملاذًا للخائفين وراحة للمتعبين وعونًا للضعفاء والمساكين.

وإذا كان أراد بصلبه لابن الزبير - رضى الله عنه - اهدار كرامته والمبالغة فى التشفى منه مع علمه بفضله وصحبته لرسـول الله ﷺ فما أشد حماقته وما أعظم جرأته على أولياء الله الصالحين.

- أما كفى الحجاج أن يحاصر ابن الزبير حيًا حتى لجأ إلى صلبه وهو ميت؟!

- وعلى كل حال، فإن صلب ابن الزبير - رضى الله عنه - ليس سوى مشهد من مشاهد الحجاج القبيحة، وخطيئة كبرى من سجل خطاياه.

.. (فوربك لنسألنهم أجميعين .. عما كانوا يعملون)

- وأمام هذه المشهاد المأسوى الرهيب نسأل من جديد:

حادى عشر: هل تحقق لابن الزبير - رضى الله عنه - ما أراد؟!

- هل حصل المصالح التى خرج فى سبيل تحصيلها؟!

- هل درأ المفاسد التى كان الناس يشكونها؟!

- هل أعاد الحقوق إلى أصحابها؟!

- إننا لن نجيب على هذه الأسئلة .. وإنما سنترك الأحداث تتكلم، ونترك التاريخ يعرض علينا هذه الصفحة السوداء من صفحات الحجاج.

فلنقلب الفكر ولنمعن النظر، ولندقق فى خبايا الأحداث، وسوف نقف على الآثار الرهيبة لمحاولات الخروج المسلح ضد الحكومات.

وأخيرًا .. فتذكر

- أننا نحب ابن زبير - رضى الله عنه - ونعرف فضله.

-فنحن نعرف أن ابن الزبير أفضل من يزيد ومن كل من جاء بعده من بنى أمية.

- ونحن لا ندافع عن الظلم ولا نجادل عن الذين يختانون أنفسهم، ولسنا للخائنين خصيما.

- إننا فقط نسجل أحداث التاريخ .. ونعيد قراءة الماضى، لنسـتعين به على المسـتقبل..

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّاكَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

﴿رَبَّنَا أغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

خامسًا ..

قصة خروج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج

هذه واحدة من أعنف الثورات التى قامت فى العراق ضد الحكم الأموى[1].. وإنما كان المحرك الأول لها الكراهية المتبادلة بين قائدها عبد الرحمن بن الأشعث، وبين والى العراق الحجاج بين يوسف الثقفى، والتى عبر عنها الحجاج بقوله «ما رأيته قط إلا أردت قتله».

لم يكن ابنُ الأشعث بأحسن حالاً من الحجاج، فكثيرًا ما كان يردد أنه يحاول إزاحة الحجاج عن سلطانه.

وكان ابن الأشعث يتعالى أن يخضع لسلطان أحد .. حتى إن عمه إسماعيل بن الأشعث حذر الحجاج من تولية عبد الرحمن بن الأشعث ابن أخيه على الجيوش لقتال رتبيل ملك سجستان، والذى كان كثير التمرد على الأمويين .. وقال إسماعيل للحجاج: «لا تبعثه فإنى أخاف خلافه، والله ما جاوز الفرات قط فرأى لوالٍ من الولاة عليه طاعة وسلطانًا.

لم يسمع الحجاج نصيحة إسماعيل بن الأشعث وأرسل عبد الرحمن بن الأشعث على الجيوش لقتال رتبيل، وقال : «هو لى أهيب، وفىّ أرغب من أن يخالف أمرى، أو يخرج عن طاعتى».

- مضى ابن الأشعث بجيشه إلى رتبيل والذى طلب الصلح، ولكن ابن الأشعث رفض ذلك، وأخذ يتوغل فى بلاده، حتى إذا حاز أرضًا عظيمة من إقليم سجستان، وساق الغنائم حبس جنوده عن التوغل فى الإقليم، وقال: نكتفى بما أصبناه هذا العام، حتى نحبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون عليها، ثم نتعاطى ما وراءها العام القادم حتى نقاتلهم على كنوزهم وذراريهم.

- أرسل ابن الأشعث إلى الحجاج بذلك الرأى، فلم يعجبه، ورد عليه مسفهًا رأيه متهمًا إياه

---

(١) هذه القصة مستقاه من «البداية والنهاية» لابن كثير جـ ٩ ص ٣٧:٥٧ مكتبة الإيمان وكتاب : تاريخ العالم الإسلامي فى ظل الحكم الأموى.. د. عبد الشافى عبد اللطيف ص ٥٠٧: ٥١٦ بتصرف.

بالضعف، فقال له: «فإن كتابك أتانى، وفهمت ما ذكرت فيه.. وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة، ويستريح إلى الموادعة، قد صانع عدواً قليلا ذليلاً ... إنى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة، ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك...»

- ولم يكتفِ الحجاج بذلك بل أرسل إلى ابن الأشعث بكتابين آخرين يحملان نفس المعنى، ويهدده بالعزل إن لم يمض لقتال رتبيل.

- أحس ابن الأشعث بالإهانة فى مخاطبة الحجاج له بهذه اللهجة وقال: «يخاطبنى بذلك وهو لا يصلح أن يكون من بعض جنودى».

- جمع ابن الأشعث كبار قادته وهو فى ثورة من الغضب، وقال لهم: «أيها الناس إنى لكم ناصح ولصلاحكم محب، ولكم فى كل ما يحيط بكم نفعه ناظر، وقد كان من رأىٍ فيما بينكم وبين عدوكم استشرت فيه ذوى أحلامكم، وأولى التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأيًا، ورأوه فى العاجل والآجل لكم صلاحًا .. وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءنى منه كتاب يعجزنى ويضعفنى، ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو، وهى البلاد التى هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضى إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم». فثار الناس إليه وقالوا: «لا .. بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع».

وقال عامر بن وائلة : «إنَّ مثل الحجاج فى هذا الرأى ومثلنا، كما قال الأول لأخيه: أحمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا ملك .. أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة فى سلطانه، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء». أ.هـ.

قام شعراء العراق وخطباؤهم يعلنون خلع الحجاج، ودعوا إلى بيعة ابن الأشعث فاستجاب لهم .. وبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين .. وقال: «تبايعونى على خلع الحجاج عدو الله، وعلى النصرة لى وجهاده حتى ينفيه الله من أرض العراق» .. فبايعه الناس، ولم يذكر ابن الأشعث خلع عبد الملك بن مروان.

- شجع ابن الأشعث على الثورة سرعة استجابة أهل العراق له وتأييد الفقهاء الذين كانوا فى جيشه للثورة على الحجاج لظلمه وبغيه وإساءته لكثير من المسلمين .. حتى قال الشعبى وكان فى

صفوف ابن الأشعث: «قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة».

وقال جبلة بن زهر، وكان على كتيبة القراء : «أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم، فقاتلوا عن دينكم ودنياكم».

.. وقال سعيد بن جبير نحو ذلك.

– عقد ابن الأشعث صلحًا مع رتبيل ملك سجستان، وواعده إن هو انتصر على الحجاج أن يضع عنه الخراج وإذا انهزم رجع إلى رتبيل ليجد عنده الملجأ والمكان الآمن.

– بلغ خبر ابن الأشعث الحجاج فانزعج وانزعج منه عبد الملك بن مروان .. وأخذ عبد الملك يوالى إرسال الجنود إلى الحجاج لقتال ابن الأشعث.

أما المهلب بن أبى صفرة والى إقليم خراسان فأرسل إلى ابن الأشعث يحذره من الثورة .. وقال له : «إنك قد وضعت رجلك فى ركاب طويل، ابق على أمة محمد ﷺ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها .. إلخ.

– ولكن ابن الأشعث لم يستجب لقوله ونصيحته.

– كما أرسل المهلب إلى الحجاج يخبره بأهل العراق وطريق التعامل معهم، وأنهم لا يصبرون على مفارقة الأزواج والأولاد، ولكن الحجاج أيضًا لم يأمن لنصح المهلب له.

– كانت بداية الثورة سنة ٨١ هـ وانتصر ابن الأشعث على جيوش الحجاج فى منطقة الزاوية خارج البصرة .. ثم قاتل واستبسل جنوده حتى استعاد البصرة من ابن الأشعث ودخلها الحجاج مرة ثانية.

– ثم استأنف ابن الأشعث انتصاراته وتكاثر عليه الناس حتى زاد أتباعه على مائة ألف مقاتل، فلما رأى ذلك العدد، أعلن خلعه عبد الملك بن مروان.

– أرسل عبد الملك بن مروان إلى أهل العراق يعرض عليهم عزل الحجاج وعروضاً أخرى فكتب يقول : «إن كان يرضيكم منى عزل الحجاج عنكم فقد عزلته عنكم، وأبقيت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أى بلد يكون عليه أميرًا ما عاش، وعشت..»

- جمع ابن الأشعث أتباعه ودعاهم لقبول ما عرض عبد الملك بن مروان عليهم فأبوا ذلك، ونفر الناس عنه وقال: «لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عُددًا وعَددًا، وهم فى ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك .. ثم جددوا خلع عبد الملك بن مروان.

- ورأى أهل العراق الفرصة سانحة للتخلص من حكم بنى أمية.

- استعد الجيشان للقتال، وتقابلا فى أكثر من ثمانين موقعة، وكان أشهرها معركة دير الجماجم، واستمرت مائة يوم، وانهزم فيها ابن الأشعث، ثم كانت معركة مسكن، وفَرَ بعدها ابن الأشعث ببعض جنوده إلى سجستان طالبًا اللجوء والأمان عند رتبيل كما تعاهد معه على ذلك.

- هدد الحجاج رتبيل بغزو بلاده مالم يسلم إليه ابن الأشعث، وتم التفاوض بين رتبيل وبين الحجاج واشترط رتبيل لنفسه: «لا يقاتل عشر سنين، ولا يؤدى فى كل سنة منها إلا ألفاً من الخراج .. بل إن الحجاج وعده أن يطلق له خراج أرضه سبع سنين».

- ألقى رتبيل القبض على ابن الأشعث وبعث به إلى الحجاج مقيدًا بالسلاسل، وفى الطريق ساوم ابن الأشعث حراسه وصعد إلى أعلى قصر وألقى بنفسه من فوق، وأخذ رتبيل رأسه وأرسلها إلى الحجاج، والذى أمر أن يطاف بها فى العراق.

ثم بعث الرأس إلى عبد الملك بن مروان، فأمر فطافوا بها فى الشام .. ثم أرسلها إلى مصر فطافوا بها هناك .. ثم دفنت لتنتهى قصة ابن الأشعث تمامًا، وكان ذلك عام ٨٥ هـ.

عبر وعظات من خروج ابن الأشعث على الحجاج.

أولاً:

لقد كان الحجاج ظالمًا .. بل كان ظالمًا جهولاً .. ولم يكن يصلح لدنيا ولا دين لأنه ما ترك لله حرمة إلا انتهكها، وكان ينقض عرى الإسلام، ولقد توسم أبوه فيه ذلك منذ نعومة أظفاره حتى إنه قال له : «يا بنى إنى والله لأظن أن الله خلقك شقيًا».

- إن الحجاج يقر بفساد طبعه وانحراف سيرته، بل وقبح سريرته .. ولقد قال عن نفسه: «أنا لجوج حقود حسود» .. ولما كان الاعتراف سيد الأدلة .. فقد وصفه عبد الملك بن مروان بعد اعترافه هذا فقال له : «إذا بينك وبين إبليس نسب».

إننا نعترف بكل ذلك ونقره ونقول: إن الحجاج ما ترك أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً، لأنه كان جبارًا عنيدًا، وكان فى سيفه رهق، وكان شديدًا يقتل النفس التى حرم الله بأدنى شبهة.

إنَّ الحجاج لم ينج من ظلمه أحد صحابيًا كان أو غير صحابى، عالمًا كان أو جاهلاً، رجلاً كان أو امرأة، صغيرًا كان أو كبيرًا .. فلقد بلغ الحجاج فى ظلمه المنتهى.

- كيف لا نقول بظلم الحجاج وهو الذى رمى ابن مسعود - رضى الله عنه- بأنه رأس المنافقين وتوعده لو أدركه لسقى الأرض من دمه.

إن الحجاج هو الذى قال لأنس - رضى الله عنه - خادم رسول الله ﷺ «لأستأصلنك كما تستأصل الشاة، ولأدفعنك كما تدفع الصمغة» .. ثم دعا عليه بقوله : صك الله سمعك.

- لقد سب الحجاج جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - وسهل بن سعد - رضى الله عنه وقرعهما .. وخاطبهما خطابًا غليظًا.

- لقد اجتهد الحجاج وسعه وبذل كل طاقته فى إذلال وإهانة وإلحاق الأذى بأصحاب رسول الله ﷺ والصالحين فى زمانه، فلقد أمر بسهل بن سعد - رضى الله عنه - فختم فى قفاه .. وأمر

بجابر بن عبدالله - رضى الله عنه - فختم فى يده، وفعل مثل ذلك بأنس - رضى الله عنه - إذلالاً وإهانة لهم.

- بل إن الحجاج لم يتورع عن قتلهم - رضوان الله عليهم - سواء بصورة ظاهرة كما فعل بعبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - أو بطريقة خفية شأنه شأن المنافقين كما دس على ابن عمر - رضى الله عنه - من طعنه بحربة مسمومة فمات.

لقد مات الحجاج تاركًا فى سجنه ثلاثة وثلاثين ألف سجين، لم يرتكبوا جريمة ولم يقترفوا جناية، ولم يجب على أحدهم حد ولا قصاص.

- بل إنَّ الحجاج حول دولة الخلافة فى عهده إلى سجن كبير يضع بداخله عشرات الآلاف، حتى لقد أطلق سليمان بن عبد الملك فى غداة واحدة من سجون الحجاج واحدًا وثمانين ألف أسير[1]، بينهم ثلاث وثلاثون ألف امرأة.

- لكل ذلك نقول: إن الحجاج كان ظلومًا جهولاً حتى إن كثيرًا من السلف وصفوه بالمبير[2] الذى أخبر بظهوره رسول الله ﷺ.

كل هذه الأوصاف السابقة التى وصفنا بها الحجاج لم نأت بها من عند أنفسها، ولكن هذا وصف المؤرخ العظيم ابن كثير للحجاج فى كتابه العظيم البداية والنهاية .. وهى أوصاف بشعة لم يوصف بها أحد من المسلمين من قبل .. ولكن الحجاج استحقها عن جدارة حيث سبق الأولين والآخرين فى الظلم والطغيان والجبروت.

لقد أخطأ عبد الملك بن مروان خطأ فادحًا بتوليته الحجاج على المسلمين وعلى الصحابة، يذلهم ويهينهم قتلاً وضربًا وشتمًا وحبسًا .. ولقد قتل الحجاج من الصحابة وأكابر التابعين والصالحين مالا يحصى.

- لقد قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لو تخابثت الأمم، فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا

---

(١) قد تكون هناك مبالغة فى هذه الأعداد تناقلتها كتب التاريخ فلا نظن أن هناك سجونًا فى هذا العصر تكفى لهذا العدد الكبير .. ولكن ضخامة العدد تدل دلالة واضحة على مدى جبروت وطغيان الحجاج.

(٢) المبير: أى المهلك .. والحديث رواه مسلم عن اسماء رضى الله عنها فى باب «ذكر كذاب ثقيف ومبيرها».

بالحجاج لغلبناهم .. ولم يكن الحجاج يصلح لدنيا ولا لآخرة.

وقد كان من أعظم حسنات عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - أنه عزل كل مسؤول فى الدولة عمل مع الحجاج، وأطلق صيحته الشهيرة : «كفى به سوءًا أن عمل مع الحجاج». فأراحوا البلاد والعباد من هذه الطغمة الظالمة التى أساءت لحكم بنى أمية.

- نحن نقر مع الحجاج أنه كان لجوجًا حقودًا حسودًا .. ونشهد مع عبد الملك بن مروان أن بين الحجاج وبين إبليس نسبًا ..

ونقول كما قال ابن كثير :«وكان شديدًا وكان يقتل النفس التى حرم الله بأدنى شبهة .. وكان جبارًا عتيدًا».

- ونعترف بما اعترف به الحسن البصرى: «أن الحجاج كان نقمة»[1].

- إننا نعترف بكل ذلك ونقرّ به ولا نشك فى ارتكاب الحجاج للمذابح الفظيعة والمعاصى الشنيعة.

- إننا نقول بوجوب البراءة من ظلمه، ولابد من بغضه على هذا الظلم، ولا نجد له مبررًا فى ارتكاب هذه الجرائم سوى الجرأة على محارم الله، والاستهانة بدماء المسلمين، حتى رأيناه يذبح الآلاف منهم ذبح النعاج بل ذبح الدجاج .. وكفاه جرمًا لقتله عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه- وسعيد بن جبير، والذى تدل قصة موته على مدى طغيان الحجاج وجبروته وجرأته على محارم الله تعالى:

- وها نحن نسوقها بطولها ليعلم القارىء مدى تجاوز الحجاج وبغيه، ويرى عظيم حلم الله عليه.

- دخل سعيد بن جبير على الحجاج .. فنظر إليه فى حقد، وقال: ما اسمك؟

- فقال: سعيد بن جبير.

- قال الحجاج : بل شقى بن كسير.

---

(١) كل هذه الأقوال أوردها الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٩ ص ١٢٢:١٣٩

- فقال: بل كانت أمى أعلم باسمى منك

- فقال الحجاج: شقيت وشقيت أمك .. ثم جعل يسأله عن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين - رضوان الله عليهم - وخلفاء بنى أمية، ثم قال له: فما تقول فىّ؟

- قال : أنت أعلم بنفسك.

- قال الحجاج: بل أريد علمك.

- قال: إذًا يسوؤك ولا يسرك.

- قال : لابد من أن أسمع منك.

- قال سعيد: إنى لأعلم أنك مخالف لكتاب الله .. تقدم على أمور تريد بها الهيبة، وهى تقحمك فى الهلكة، وتدفعك إلى النار دفعًا.

- قال الحجاج : أما والله لأقتلنك.

- قال: إذًا تفسد دنياى وأفسد آخرتك.

- قال: اختر لنفسك أى قتلة شئت.

- قال سعيد: بل اخترها أنت لنفسك ياحجاج .. فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

- قال الحجاج: أفتريد أن أعفو عنك؟

- قال: إن كان عفو فمن الله، أما أنت فلا براءة لك[1] ولا عذر.

- فاغتاظ الحجاج، وقال: السيف والنطع[2] يا غلام.

فتبسم سعيد، فقال له الحجاج: وما تبسمك؟!

- قال سعيد: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك.

---

(١) فلا براءة لك: أى لا عفو عندك.

(٢) بساط من جلد يفرش تحت من يحكم عليه بالقتل.

- فقال: اقتله يا غلام.

- فاستقبل القبلة، وقال «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين».

- فقال: اصرفوا وجهه عن القبلة.

- فقال سعيد : «فأينما تولوا فثم وجه الله».

- فقال: كبوه على الأرض.

-فقال سعيد: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

- فقال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلا أدعى[1] منه لآيات القرآن.

- فرفع سعيد كفيه وقال: «اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدى».

- فمرض الحجاج، وكان كلما أغفى غفوة يصحو صارخًا ويقول: هذا سعيد ابن جبير آخذ بخناقى .. هذا سعيد بن جبير يقول: فيم قتلتنى؟

- ثم يبكى ويقول: مالى ولسعيد بن جبير؟! ردوا عنى سعيد بن جبير.

فلما مات، شوهد فى المنام، فسئل ما فعل الله بك فيمن قتلتهم يا حجاج؟

- فقال: قتلنى الله بكل امرئ قتلة واحدة، وقتلنى بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

.. وبعد هذا العرض لقصة مقتل سعيد بن جبير .. نعود ونقول:

إن الدروس التى نذكرها من فتنة ابن الأشعث : لا تعنى دفاعًا عن الحجاج، ولا تبرئة له من جرائمه، ولا تهوينًا من معاصيه.

كما أن هذه الدروس ليست إدانة للذين خرجوا عليه، ولا محاكمة لهم ولا لتحميلهم العبء الأكبر فيما حدث، وليست كذلك طعنًا فى نياتهم وإخلاصهم..

---

(١) أدعى منه: أقوى استحضارًا لها.

ولكننا نقول: إنهم أرادوا باجتهادهم الحق والخير، وإنما استفزهم لذلك الخروج بطش الحجاج وبغيه وقهره لخيار الأمة من الصحابة - رضوان الله عليهم - وسادات التابعين.

ورغم ذلك، فإن إدانتنا للحجاج وبغضنا له على ظلمه، لا يعنى أن نهضم الحقيقة التى علمناها، ولا أن نكتم الحق الذى رأيناه.

إن حبنا للصحابة، رضوان الله عليهم - والتابعين ومعرفتنا بمدى العنف الذى لاقوه، والشدة التى أصابتهم من جراء الحجاج، لا يعنى أبدًا أن نفسر التاريخ تفسيرًا مغلوطًا، ولا أن نقف على الأحداث دون أن نتلمس ما فيها من دروس سواء كانت هذه الدروس لصالحنا أو ضدنا.

- إنه رصد أمين لهذه الأحداث الجسام .. وبيان المصالح الشرعية التى ضاعت والمفاسد العظيمة التى حدثت من جراء هذا.

إننا لا نريد الحديث عن الأشخاص .. ولكن عن العبر والعظات : «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون».

إننا لو فسرنا التاريخ على خلاف حقيقته، فإنَّما نضلل أنفسنا، ونخدع الأجيال من ورائنا، ونحمل الأمور مالا تحتمل ونمضى على غير الجادة، وهذا مالا يرضاه منا الله ولا رسوله ﷺ لأن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، .. «وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً».

فلا بد أن نقول الحق كيفما كان .. ونتحرى الصدق حيثما وجد، ونحكم بالعدل كيفما وقع.

ثانيـــــًا

لقد شجع ابن الأشعث على ثورته ضد الحجاج خروج الكثير من الفقهاء والعلماء من أمثال الشعبى وسعيد بن جبير وغيرهما، ممن أخرجهم ظلم الحجاج وبغيه وإهداره للكثير من القيم الإسلامية.

إن رفع الظلم فى حد ذاته هدف نبيل يحمد أصحابه عليه .. لكننا نقول ولا زلنا نكرر: «إن النوايا الحسنة والمقاصد الشريفة لا تسوغ لأصحابها الوقوع فى الخطأ وتجاوز الحق وإهدار المصالح

التى من الواجب على الجميع تحصيلها للإسلام والمسلمين».

– نعم، لقد اجتهد هؤلاء الفقهاء فى خروجهم، وأرادوا بذلك نفع الإسلام والمسلمين واعزازهم .. ولكن لم يتحقق لهم ما أرادوا ، إنما عادوا بنقيض هدفهم، وبان خطأ اجتهادهم ومجانبتهم الصواب فى ثورتهم.

إن على العلماء والدعاة إلى الله إذا قامت حرب أو وقع قتال بين طائفتين من المسلمين أن يبذلوا وسعهم فى الإصلاح بين المتقاتلين والتوفيق بين المتنازعين، وهذا هو دورهم الأساسى وواجبهم الرئيسى كما قال القرآن (فأصلحوا بينهما).

إن العلماء والدعاة إلى الله هم ضمير الأمة الحى، وعقلها المتفتح وقلبها النابض، يشعرون بأوجاع الأمة، ويبصرونها بطريقها ويميزون بين ما ينفعها وما يضرها.

إن الأمة تأمن بجانب هؤلاء العلماء، وتجد ضالتها عندهم، وترى الحق فى سلوكهم وأعمالهم.

لقدكان حريًا بهؤلاء الفقهاء الذين خرجوا مع ابن الأشعث أن ينزعوا أنفسهم من هذا الصراع، ويسعوا للصلح بين الفريقين، ويتفرغوا لتعليم الأمة دينها، ولا يقحموا أنفسهم فى القتال، خاصة أنهم لا خبرة لهم بالحرب وسيكونون أول الخاسرين بدخولهم المعركة.

لقد علم الحجاج بن يوسف ذلك بدهائه ومكره. فحمل على كتيبة القراء من جيش ابن الأشعث، فقتل منهم خلقا كثيرًا، وشرد فى البلاد من نجا منهم.

إن دخول العلماء فى هذا القتال وموتهم قد حرم الأمة جميعًا من علمهم، وحرق قلوب المسلمين عليهم، وعم الجهل بغيابهم .. بل كانت هزيمتهم من أكبر عوامل هزيمة ابن الأشعث وفراره، لأن نفسية الجنود تحطمت لمقتل العلماء فهم يمثلون القوى الروحية والتعبئة المعنوية التى كانت تحفز الجنود على القتال.

– إن بقاء العلماء يدعون الناس إلى الخير، وتجتمع القلوب عليهم لهو خير من دخولهم فى حرب مع حكوماتهم، ثم لا يحققون شيئًا مما أرادوا .. فلا هم انتصروا فى حربهم، ولا هم حافظوا على دعوتهم، وإنما قتلوا وحوصروا ومنعوا من الدعوة وحرم المسلمون جميعًا من علمهم.

ولقد صدق الحسن البصرى حينما قال: «مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر لعلمه»[1].

- أما لو تأنى هؤلاء لعلموا أن زوال الدنيا بأسرها أهون على الله من موت عالم، لأن فى موت العلماء خراب الدنيا وذهاب الدين.

- إن العلماء والدعاة والمصلحين إذا ماتوا أو قتلوا، اتخذا لناس رؤوسًا جهالاً يتكلمون بغير علم فيضلون ويضل الناس بقولهم ويشقون بأعمالهم .. وبموتهم تتهيأ الفرصة لظهور أمثال الحجاج وابن الأشعث، وكم رأينا ما فعل الاثنان بالأمة، وماذا جرًا عليها من مصائب وبلاءات.

ثالثـــــاً

إنَّ من أكبر الأخطاء وأشد الأخطار التى تقع فيها الأمة، أن يكون بأسها بينها شديدًا، وأن تتحول سيوفها إلى نحورها ، وتصوب سهامها إلى صدور أبنائها، وتحدث الصراعات الدامية بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد، فتهدر تبعًا لذلك الطاقات وتستنزف الأموال، وتزهق الأرواح، وتنصرف الأمة عن جهاد عدوها الذى يتربص بها ويحصى عليها أنفاسها.

لقد رأينا ابن الأشعث يصالح رتبيل ملك سجستان والذى طالما أرق بتمرده وكثرة انتقاضاته دولة الخلافة .. مما اضطرها لتسيير الجيوش لحربه والتوغل فى بلاده، مما أتاح له الفرصة لافتراسهم وقتلهم.

- بل إننا رأينا ابن الأشعث يضع الخراج عن رتبيل حتى يقبل الصلح معه ليتمكن هو من حرب الحجاج وقتال بنى أمية .. مع أن هذا الخراج هو ملك للأمة جميعًا، لا يحق لابن الأشعث ولا غيره أن يتصرف فيه وفق مصلحته وهواه، ولكنها الحرب التى تجعل كل من دخل فيها يفعل ما يستطيع فعله دون التقيد بحل ذلك الأمر أو حرمته.

- لقد قتل فى حرب ابن الأشعث مائة وخمسون ألفًا من المسلمين.

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٠٢

- فكم من الأمهات قد ثكلن؟ وكم من الزوجات قد رملن؟ وكم من الأطفال قد يتموا بفقد هؤلاء؟

- كم من أم قد احترق قلبها على ولدها الذى أكلته نار الحرب؟

- وكم احترقت قلوب الأمة جميعًا على قتل هؤلاء الفرسان الشجعان فى حرب ليس فيها غالب ومغلوب ولا منتصر ومهزوم لأن كلا الطرفين المتقاتلين خاسر، وكلاهما مهزوم .. فهم جميعًا مسلمون وأبناء وطن واحد.. فماذا يكسب الإنسان وماذا تبقى له من نصرٍ بعدما يقتل أخاه بيده؟!

كم من الفتوحات الإسلامية توقفت عن تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس بعدما وقف المسلمون يتناحرون بعضهم تحزب للحجاج والبعض الآخر انحاز لابن الأشعث، مع أن كلا الرجلين لم يقصد بحربه وقتاله نصرة الإسلام وإعزاز المسلمين ولا الدفاع عن الأوطان، وإنما حركهما الحقد المتبادل من كليهما تجاه الآخر.

- كم نسيت الأمة خلال فترة الحرب حاضرها؟ وكم يهدر مستقبلها؟

أما لو اجتمعت هذه الصفوف، وتوحدت هذه القوى، ونظمت هذه الطاقات ورشدت هذه الجهود لما فكر رتبيل ولا غيره فى التمرد ضد الدولة الإسلامية، ولا منع خراجه عنها بعدما رأى توحد واجتماع أبنائها.

رابعـــًا

إن النفس الإنسانية كثيرًا ما تجنح إلى الكمال، وتصبو إلى المثالية، ولطالما عاش المرء يتمنى أن يتحقق له ما يريد، ولكن سنة الله فى الحياة قضت أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

إن كثيرًا من الناس قد رضى بواقعه، وأحب هذا الواقع وتفاعل معه، فقاده هذا التفاعل إلى تحقيق الكثير مما عاش يتمناه ويحلم به، وهؤلاء هم العقلاء الذين يقبلون المتاح لهم ثم يبنون عليه آمالهم ومستقبلهم ، فهم يرضون بالجزء ليوصلهم ذلك الجزء إلى ما هو أكبر منه قدرًا وأعظم منه شأنًا.

ولكن ثمة فريق من الناس يطيب لهم العيش على الأمانى والأحلام .. فلا يزال الواحد منهم يطلب المستحيل حتى يضيع الممكن من بين يديه، ويظل أحدهم يراهن على الغيب حتى يفقد الواقع الذى حققه، ويقضى أحدهم عمره يلهث وراء المفقود حتى يتفلت الموجود من بين يديه.

إن أناسًا يطلبون كل شىء فإذا لم يتحقق لهم ما أرادوا رفضوا كل شىء بدعوى المحافظة على الحقوق، وعدم التفريط فى أى شىء أو ترك أى واجب.

لقد كان هدف أهل العراق التخلص من حكم بنى أمية، وهذا هدف كبير لا يطيقه أهل العراق ولا يقدرون على تحقيقه .. ولو أنهم حينما عجزوا عن بلوغ ذلك الهدف قبلوا ما هو أقل منه لأنقذوا أنفسهم وأنقذوا الأمة من هذه الحرب الضروس التى أتت على كل شىء..

لقد عاشوا يتمنون خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان ولكنهم عجزوا عن خلعهما، فعرض عليهم عبد الملك أن يخلع الحجاج من ولاية العراق، ويريحهم من ظلمه وأن يجرى عليهم الأموال، ويختار قائدهم ابن الأشعث أى بلد يحكمه طيلة حياته. لكنهم رفضوا كل ذلك، وساروا وراء هدفهم الكبير الذى لا يملكون تحقيقه.

لقد تمنوا خلع الاثنين، ورفضوا عروض عبد الملك عليهم. فجاءهم الحجاج بجيوشه فهزمهم وسامهم سوء العذاب، بل ودخل البصرة، وجعل لا يبايع أحدًا من أهلها حتى يشهد على نفسه بالكفر.

- إن من أراد الكل فاته الكل، ومن طلب المستحيل أضاع الممكن.

- إن على الأجيال أن تتعلم كيف تختار من الحلول ما يحقق لها أكثر مصالحها ولا تشترط أن يحقق هذا الحل كل المطالب.

- إن الحركة الإسلامية بحاجة أن تتعلم كيف تقبل التسامح فى بعض حقوقها حتى لا تضيع منها كل الحقوق، بل وقد تضيع الدعوة جميعها.

- إن الرسول ﷺ كان حكيمًا فى الحديبية وهو يقبل من المشركين صلحهم على الضيم والهضم لأن مصلحة الإسلام الكبرى تقتضى منه ﷺ ذلك، وأن يتنازل عن بعض حقوقه فى كتابة الوثيقة حتى إنَّ المسلمين ليضيقون بذلك.

«.. إن الرسول ﷺ أملى عليًا فقال: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

- فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف الرحمن، أكتب ما نكتب: باسمك اللهم.

فضاق ذلك بالمسلمين، وقالوا : هو الرحمن، والله لا نكتب إلا الرحمن.

- قال سهيل: إذًا لا أقاضيه[1] على شيء.

- فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم.

- ثم قال ﷺ: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله.

- فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك ولاتبعتك .. أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟

- فضج المسلمون ضجة هى أشد من الأولى، حتى ارتفعت الأصوات، وقام رجال يقولون: لا تكتب إلا محمدًا رسول الله .. وإلا فالسيف بيننا، علام نعطى الدنية فى ديننا؟

- فقال رسول الله ﷺ: أنا محمد بن عبد الله : فاكتب»[2]

- فلننظر كيف يتنازل ﷺ عن أحق حقوقه فى الاعتراف برسالته وكيف يقبل أن يمحو «الرحمن» من الوثيقة؟

- بل ويرجع عن دخول مكة، وهى بلده التى أخرج منها؟

- ويرد من جاءه مسلمًا، ولا يرد المشركون من جاءهم كافرًا؟

- لقد قبل الرسول ﷺ كل ذلك حتى يتم الصلح ويأتى الفتح.

- لقد محا ﷺ كلمة «الرحمن» من الوثيقة، ولكنها لم تمح من الحقيقة، وقبل أن يترك كلمة «رسول الله» وهو فى الواقع وفى قلوب الناس رسول الله ﷺ.

وقبل أن يرد الذى يأتيه، وفى هذا بعض الظلم للإسلام والمسلمين ولكنه ﷺ أخذ المتاح أمامه. فقاده ذلك الصلح إلى الفتح المبين.

(١) أى لا أعاهده على شيء.

(٢) المنهج الحركى ص ٣٥١ ط دار الوفاء.

إن على أصحاب الحقوق أن يقبلوا الحلول المتاحة لهم حتى يأتى اليوم الذى يحصلون فيه على كامل حقوقهم .. فالسياسة هى فن الممكن. وليست طلب المستحيل كما يقول أهل السياسة، وذلك موافق لشرع الله فقد قال تعالى : «فاتقوا الله ما استطعتم».

إن الذين يرفضون الجزء لأنهم يطلبون الكل، والذين يتبعون فلسفة كل شىء أو لا شىء، إنما يتبعون فلسفة عقيمة لا يقرها الشرع ولا يقبلها الواقع .. ومن لم يقنع بكلامنا فستعلمه الأيام بدروسها القاسية هذه العبرة العظيمة.

إن على أبناء الحركة الإسلامية أن يعملوا بالقاعدة العظيمة .. (مالا يدرك كله لا يترك كله) .. والتى ضمنها القرآن بقوله : «فاتقوا الله ما استطعتم» ، «لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها».

- لقد كان على أصحاب ابن الأشعث أن يقبلوا عرض عبد الملك بعزل الحجاج تحقيقا للمصالح، وحقنًا للدماء، وبعض الشىء خير من لا شىء، وبقاء القليل خير من ضياع الكثير.

- قد يقول قائل: إن فى ذلك مصلحة عبد الملك بن مروان..

- نقول: نعم، وفيه أيضًا مصلحة الإسلام والمسلمين، ولا يجوز لنا أن نضيعها.

- فلنتذكر دائمًا: «إن من أراد الكل فاته الكل .. ومالا يدرك كله لا يترك كله .. ومن زايد على المستحيل أضاع من يديه الممكن».

خامسًا

إننا جميعًا نعلم أن الحجاج رغم بطشه وطغيانه .. وتملكه هذه القوة الرهيبة، لم يكن خليفة للمسلمين ، وليست السلطة العليا بيده، ولا يحوز القرار الأخير.. فما كان الحجاج غير والٍ من ولاة بنى أمية.

كذا لا يغيب عنا أن الحجاج لا يملك أمر نفسه سواءً فى توليتها أو عزلها، ولكن هذا القرار بيد عبد الملك بن مروان لأنه الخليفة .. وقد كان الحجاج يهابه أشد الهيبة، بل ويرتعد عند سماع اسمه، وأظهر دليل على ذلك .. موقف الحجاج عندما أرسل إليه عبد الملك يتوعده لأنه آذى الصحابي الجليل أنس بن مالك - رضى الله عنه - ويأمره بالاعتذار إليه وحسن معاملته.

– لم يملك الحجاج أمام أمر عبد الملك له إلا السمع والطاعة ، ونهض وهو يقول: قم بنا إلى أبى حمزة، يقصد أنس – رضى الله عنه – فنترضاه.

– لقد كان أمام ابن الأشعث والذين خرجوا معه على الحجاج خيارات عديدة غير خيار الثورة عليه، والخروج المسلح لقتاله.

– لقد كان بإمكانهم الذهاب إلى عبد الملك بن مروان، وهو الوحيد الذى يملك عزل الحجاج أو توليته، ويشكون إليه ظلمه، ويطلبون عزله فإن استجاب لهؤلاء النفر وخاصة فيهم العلماء، فبها ونعمت ويكون المقصود قد تحقق بأيسر سبيل.

إننا رأينا عبد الملك قد استجاب لهذه المطالب بالفعل، وحاول ترضية أهل العراق، وأراد أن يعزل الحجاج.. ولكنهم رفضوا ذلك منه.. وطالبوا بخلع عبد الملك نفسه من الخلافة.

لقد كان على ابن الأشعث ومن معه أن يلتزموا نصيحة الصحابى العظيم أنس بن مالك – رضى الله عنه – فقد ذهبوا إليه من قبل يشكون إليه ظلم الحجاج – فقال رضِى الله عنه: «اصبروا فإنه لا يأتى عليكم عام أو زمان أو يوم إلا والذى بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم عز وجل» سمعته من نبيكم ﷺ (١).

ما أعظمك يا أنس وما أحكمك .. والله لو أن رجلاً غيرك استشير فى هذا الأمر لأشار عليهم بالخروج والقتال – خاصة أن الحجاج قد ظلم سيدنا أنس – رضى الله عنه – ظلمًا شديدًا ، وأساء إليه إساءة بالغة .. ولكنه الحق والعدل حتى مع الذين أساءوا إليه .. وإنها تقوى الله فى أقوام لم يتقوا الله فيه .. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٢).

– ينبغى لجميع المسلمين فى كل زمان وفى كل قطر أن يكونوا عقلاء، وأن يتصرفوا بحكمة، وليعلموا أن قرار عزل رجل أو توليته إنما هو بيد الحاكم، فإذا أفلحوا فى إقناعه بصدق نواياهم وسلامة موقفهم، وأحسنوا عرض مطالبهم واقتراحاتهم، واستعانوا بالله على ذلك فسوف ينجحون بدرجة كبيرة فى حل مشاكلهم دون الحاجة إلى الخروج المسلح أو القتال.

---

(١) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه

(٢) سورة المائدة.

وربما قال قائل: كيف تطلب من أولئك الذين حاولوا الخروج على الحجاج أن يأتوا باب عبد الملك بن مروان، وأن يدخلوا على الحكام والسلاطين؟! ألم تسمع بتحذير النبى ﷺ من الدخول على السلاطين والتردد على قصورهم؟!

ونقول: لعل هذه الفرصة مناسبة لإلقاء الضوء على هذه القضية .. والتى كثيرًا ما يتناولها بعض الدعاة .. ويسوقون الأحاديث النبوية المحذرة من الدخول على الحكام والسلاطين.. لئلا يفقد الداخل عليهم دينه، ويتخلى عن مبادئه .. ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ: «من سكن البادية جفا .. ومن اتبع الصيد غفل .. ومن أتى أبواب السلاطين افتتن»[1] .. وقوله ﷺ فى رواية أخرى: «مازاد أحد من السلطان دنوًا، إلا زاد من الله بعدًا»[2].

والواقع أن الأمر ليس على إطلاقه كما يظن البعض.. وليس كل دخول على الحكام والسلاطين يعد تنازلاً عن الدين، وبعدًا عن رب العالمين .. ورغم صحة الأحاديث السابقة، إلا أنها تمثل جزءًا من التصور الكامل لهذه القضية .. وتبرز أحد وجهى المسألة .. وبدون إبراز الوجه الآخر لن تتضح الصورة ولن يصح الفهم.

ألم يقل النبى ﷺ فى حديثه: «اشفعوا تؤجروا»[3]؟!

- ألم يرغب النبى ﷺ فى السعى بالشفاعة لدى السلطان لمن له يد عنده ابتغاء تخفيف هموم الناس وقضاء حوائجهم؟!

فأنى للشفيع أن يشفع دون الدخول على الحكام؟! ودون طرق أبواب السلطان؟!

- وتأمل كيف شفع ابن عمر - رضى الله عنه - لحجيج مكة عند الحجاج بن يوسف، وذلك حتى يتوقف عن قصف الكعبة بالمنجنيق ليتمكنوا من أداء مناسك الحج، وقد فعل .. فهل كان دخول ابن عمر - رضى الله عنه - على السلطان سببًا فى وقوع الفتنة وضياع الدين أم كان سبباً فى درء المفاسد عن المسلمين وجلب المصالح لهم؟!

---

(١) ذكر هذا الحديث الحافظ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله

(٢) ذكر هذا الحديث الحافظ ابن عبد البر من جامع بيان العلم وفضله.

(٣) متفق عليه عن أبى موسى رضى الله عنه

وخلاصة القول: إن الدخول على السلاطين والحكام ليس شرًا كله، وليس مذمومًا على إطلاقه .. وإنما يكون شرًا يلحق الذم صاحبه حين يغشى أبواب الحكام فيبيع دينه ويتخلى عن إيمانه .. ويفتنه ذهب المعز فيتنازل عن مبادئه .. ومثل هذا لا يكون غالبا من حملة الدين المخلصين له . . بل يكون من المتاجرين بمبادئهم من أجل مكسب دنيوى رخيص.

أما الصادقون المخلصون فى محبة الخير للناس .. فهم يدخلون على الحكام لإسداء النصيحة، ورفع الظلم عن المستضعفين، وسعيًا لإحقاق حق وإبطال باطل، أو تقليل شر أو قضاء حوائج الخلق .. فلو تخلى أمثال هؤلاء عن الدخول على السلطان وأخلوا ساحته ومجلسه للمفسدين المبطلين.. فمن يرفع للسلطان هموم شعبه، ومن يرشده لما فيه خير البلاد والعباد؟!

وتراث المسلمين زاخر بمواقف مشرفة لعلماء عظام دخلوا على السلطان وغشوا أبواب الحكام .. لا ابتغاء عرض زائل من الدنيا .. وإنما بذلاً للنصيحة وتذكيرًا بالله.

وما موقف الحسن البصرى مع ابن هبيرة والى العراق منا ببعيد .. فما زال الحسن البصرى يذكره بأمانة الرعية ، ويخوفه من الله حتى بكى ابن هبيرة واخضلت لحيته.

وكذلك ما كان من خبر الإمام الزاهد أبى حازم الأعرج حين دخل على سليمان بن عبد الملك .. وظل ينصحه ويذكره بيوم القيامة حتى قال له الخليفة: جزاك الله خيرًا من عالم ناصح.

وأيضًا ما كان من طاووس عالم التفسير الشهير حين دخل على الحجاج، وصدع بالحق عنده حتى احمر وجه الحجاج خجلاً من جلسائه.

فهؤلاء علماء دخلوا على الحكام والسلاطين .. فكان دخولهم زيادة فى الدين لا نقصًا فيه .. وإظهارً للحق لا كتماً له .. فليس كل دخول على الحكام والسلاطين منهياً عنه .. فمنه ما هو مباح .. بل قد يكون مندوبًا أو واجباً.

وها هنا معنى آخر لا يقل أهمية عن سابقه .. ففى مثل هذه المواقف التى يثور فيها النزاع .. ويحتدم الخلاف بين الحاكم وبين طائفة من أصحاب العلم والدعوة .. فإن فكرة الخروج المسلح

(١) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه.

تهيمن على عقلية البعض.. وتجعله لا يرى لها بديلا للتعامل مع هذه الأزمة .. ويعتبر فى ذات الوقت أن سلوك سبيل الحوار والتفاهم لا يعيد حقًا ولا يرد مظلمة .. بل يعتبر الحوار أول خطوة فى طريق التنازل عن الحق وتشويه معالمه.

والحقيقة أن هذا الظن مجانب للصواب .. ومازالت حقائق التاريخ والواقع تكذبه وتفند حججه على مر العصور .. فلا علاقة من قريب ولا من بعيد بين الحوار والتفاهم وبين ضياع الحق وتشويه معالم القضية .. بل على العكس، كثيرًا ما يكون تجاهل مبدأ الحوار سببا فى ضياع الحقوق وذهابها إلى غير رجعه .. والأصل أن يسلك صاحب الحق سبيل التفاهم والتفاوض ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .. فهو أيسر الطرق وأقربها لنيل المراد وتحقيق المقصود.

وقد يضيع الحق، وتشوه معالمه أشد ما يكون فى ميادين القتال .. فعلى هدير طلقات الرصاص، وزمجرة المدافع يطيش صواب الكثيرين .. ولا يجد التفكير المتأنى والنظرة المتعقلة موطئ قدم فى خضم المعارك والحروب.

وهل ظهرت فرقة الخوارج، وكفرت خيار المسلمين كعلى ومعاوية- رضى الله عنهما - إلا بعد أن وقع الصراع بين طوائف من أهل الإسلام؟!

وهل تجرأ البعض على إهدار كرامة آل بيت النبى ﷺ الأطهار إلا بعد خروج الحسين - رضى اللهعنه - على يزيد ونشوب القتال بينهم؟!

وهل أقدمت جيوش الحجاج على استباحة حمى الكعبة ورميها بالمنجنيق إلا فى خضم الصراع المحتدم بين ابن الزبير - رضى الله عنه - وبين الحجاج؟!

وهل كان لحرمة المدينة أن تستباح إلا بعد أن خرج عبد الله بن حنظلة على يزيد؟!

هذه المشاهد وغيرها تطرح أمامنا سؤالاً يقول: هل عاد الحق لأصحابه فى تلك المواقف عندما سلكوا سبيل القتال؟!

أم كان القتال سببًا فى ضياع الحق بالكلية، بل وفى ضياع هيبة صاحب الحق واستباحة حرمته؟!

وماذا لو كان أصحاب الحق قد آثروا سبيل التفاهم والحوار؟! ألم يكن ذلك أجدى وأفضل؟!

ولربما توصلت الأطراف جميعًا إلى حل مشرف يرضى الجميع ويجنب المسلمين إيغار الصدور وإراقة الدماء.

إن الحوار والتفاهم هو السبيل الأمثل غالبًا لحل المشكلات ونزع فتيل الأزمات .. لاسيما حين يكون النزاع بين أهل الإسلام أنفسهم .. وهو ذات السبيل الذى سلكه الحسن بن على - رضى الله عنه - رغم لوم اللائمين .. ونال بسببه وسام السيادة من رسول الله ﷺ .. وذلك رغم رضاه فى صلحه ببعض الضيم ولكنه خير من إراقة الدماء البريئة وانتهاك الحرمات، وخير من أن يشمت العدو فى أبناء الدين الواحد وهم يفنون بعضًا بغير طائل.

فلله در الحسن بن على - رضى الله عنه - ولله در من اتَّبَعَه وسلك دربه وسار على هُدَاه.

سادسًا: إنَّ الخروج على الحكام، ونزع اليد من طاعتهم ليس بالأمر الهين أو اليسير، بل إنه لمن أكبر الخطوب وأشد الأخطار التي قد تنزل بالأمة وتحيق بها .. حتى إننا رأينا كيف يتفرق الشمل ويتناحر الأشقاء وتأتى مثل هذه الحروب على الأخضر واليابس.

لقدخرج ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف، وعبد الملك بن مروان، فقتل من جيشه فى هذه المعارك مائة وثلاثون ألف مقاتل. منهم الأخيار والسادات والعلماء أمثال محمد بن سعد بن أبى وقاص، وسعيد بن جبير وغيرهم(١).

لقد صمم ابن الأشعث على الثورة ونزع يده من الطاعة، فقتل الحجاج من جيشه خمسة آلاف أسير صبرًا(٢).

لم يصبر ابن الأشعث على ظلم الحجاج، واستعان بالفقهاء عليه فهجم الحجاج على كتيبة القراء فقتلهم جميعًا وحرم الأمة من علمهم(٣).

لقد أعلن ابن الأشعث القتال ضد دولته، فرأيناه يتنازل عن الخراج لأعدائها، ويضيع على المسلمين مصدرًا عظيمًا من أعظم الموارد التى تثرى الأمة وتساعد على قضاء مصالحها، بل رأينا هذه الأموال تتوجه لتصب فى خزائن الأعداء ليستعينوا بها على حرب الدولة الإسلامية وقتال أبنائها.

(١) (٢) (٣) البداية والنهاية لابن كثير

إن ابن الأشعث بخروجه على الحجاج لظلمه وفسقه، قد أعطاه الفرصة ليزداد فى الظلم، ويتمادى فى الفسق ويكثر من المفاسد .. حتى رأيناه يدخل البصرة ويطلب من أهلها أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر لخروجهم على الخليفة، فمنهم من أقر بكفره فنجا من القتل، ومنهم من أبى الشهادة على نفسه فحصده السيف، وقتل الحجاج فى ذلك خلقاً كثيرًا[١].

لقد انتهت ثورة ابن الأشعث وكان جملة من قتل فيها مائة وخمسين ألفًا من المسلمين .. ترى كم فجعت الأمة فى أبنائها بقتل هذا العدد الرهيب من الشباب والشيوخ والعلماء والفرسان والشجعان الذين لو توجهت طاقاتهم لغير القتال لضمنوا لدولتهم السيادة والاستقرار، ولما تجرأ أحد على التحرش بها ومهاجمتها، أو إملاء الشروط وفرض المطالب والدخول فى المساومات معها، كما اشترط رتبيل لنفسه ألا يقاتله الحجاج عشر سنين، وأن يضع عنه الخراج لا يدفعه سبع سنين أخرى، وألا يدفع من الخراج إلا ربع قيمته.

ترى هل يجرؤ رتبيل على التقدم بمثل هذه المطالب لو أن الأمة جميعها توحدت خلف حاكمها، وتوجهت صوب عدوها الخارجى؟!

ترى هل فكر رتبيل فى ذلك إلا بعدما رأى الفريقين يقتتلان واستغل ورقة ابن الأشعث للضغط على الدولة الإسلامية وابتزازها وحرمانها من مواردها؟!

يقول الإمام ابن كثير عن ثورة ابن الأشعث هذه :«كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير، هلك فيه خلق كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[٢].

يقول الدكتور عبد الشافى عبد اللطيف أستاذ التاريخ بجامعة الأزهر: «وهكذا انتهت حياة ابن الأشعث الذى قاد أخطر ثورة ضد عبد الملك بن مروان، أريقت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين .. وهى ثورة دفعت إليها الأحقاد الشخصية المتأصلة فى نفس ابن الأشعث والحجاج من جهة، وبغض أهل العراق للحكم الأموى من جهة أخرى»[٣].

---

(١) ، (٢) البداية والنهاية لابن كثير

(٣) تاريخ العالم الإسلامي.

ويقول أيضًا: «ولكن هل مجرد الكره يكفى ليكون سببا للثورة .. فلو أنَّ كل كاره لحكومة ثار عليها لما بقيت حكومة ولا دولة .. وهل هناك حكومة بعد حكومة الرسول ﷺ وأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - كانت موضع رضا جميع الناس»[1].

كم كان علماء أهل السنة حكماء حينما منعوا الخروج على الحاكم ونزع اليد من طاعته لمجرد ظلمه وفسقه.

كم كانوا عظماء عندما قيد جمهورهم الخروج على الحكام وخلعهم بالكفر البواح الذى عندنا من الله فيه برهان؟

كم كانوا عظماء عندما منعوا كل كاره لحاكم بسبب فسقه أو ناقم عليه بسبب ظلمه من قتال هذا الحاكم أو الخروج عليه حتى قال جمهور الفقهاء من أهل السنة والجماعة قولتهم العظيمة: «إمام ظلوم خير من فتنة تدوم»

- نعم، حاكم غشوم خير من قتال لا يبقى على شىء، يشب فيه الصغير، ويشيب عليه الكبير، وترفع به الرحمة عن الأمة، ويحل عليها العذاب، ويسخط عليها ربها، ويطمع فيها عدوها.

إن على الذين يعيبون على جمهور أهل السنة والجماعة رأيهم هذا فى منع الخروج على الولاة لمجرد ظلمهم وفسقهم، أن يعلموا أنهم أخذوا هذا الرأى من أحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يقولوا به مجاراة لحاكم ولا نفاقًا لدولة، ولا تعصبًا للأمويين ضد غيرهم.

إن فقهاء أهل السنة بحثوا فى أحاديث الرسول ﷺ وهى كثيرة فوجدوها تمنع الخروج والقتال ضد الحاكم .. فقالوا بما قال به رسول الله ﷺ فى أحاديثه والتى منها:

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «من كره من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية»[2]

(٢) عن ابن عمر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :«من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[3].

---

(١) تاريخ العالم الإسلامي. .. د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف

(٢) متفق عليه (٣) رواه مسلم

(٣) عن أبى هنيدة وائل بن حُجر - رضى الله عنه - قال: سأل سلمة بن يزيد الخعفى رسول الله ﷺ، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا. فما تأمرنا؟.. فأعرض عنه، ثم سأله .. فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»[١].

(٤) عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها، قالوا : يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم»[٢].

ولقد نظر فقهاء الإسلام العظام من أمثال ابن كثير والنووى وغيرهما فى هذه الأحاديث وغيرها التى تأمر بالصبر على الحكام وعدم الخروج عليهم .. فاستقوا منها رأيهم بحرمة الخروج على الحكام الفسقة الظلمة، دورانًا مع السنة وبحثا عن مصالح المسلمين.

إن فقهاء الإسلام رأوا الآثار الرهيبة والمفاسد الجمة والمصالح التى تهدر فى قتال الحكام والخروج عليهم، فمنعوا هذا القتال وحرموا هذا الخروج.

هل لأحد ينظر فى حرب ابن الأشعث وما جرى فيها، وما ترتب عليها من كوارث وسفك للدماء وإذلال للمؤمنين أن يقول بعد ذلك بجواز الخروج على الحكام لظلمهم وفسقهم؟

مرة أخرى نذكر بالقاعدة العظيمة التى قالها ولزمها جمهور العلماء من أهل السنة : «إمام ظلوم خير من فتنة تدوم».

إن اتهام العلماء الذين منعوا هذا الخروج لمفاسده وحرمته بأنهم إنما قالوا ذلك نفاقًا لبنى أمية .. فيه من الغلط والتخليط والجرأة على سلف هذه الأمة والطعن في دين علمائها ما يمثل فى حد ذاته ظلمًا حريٌ بأصحابه أن يقلعوا عنه ويستغفروا الله منه.

(١) رواه مسلم
(٢) متفق عليه

سـابعًا

لقد غضب ابن الأشعث على الحجاج بسبب كلمات بعث بها إليه يوبخه فيها، فاستثار الناس لخلعه، ولما لم يقدر على ذلك فر هاربًا إلى رتبيل ملك سجستان، وهو رجل غير مسلم يطلب عنده اللجوء والأمان وتعاهد معه رتبيل على ذلك.

ثم رأينا رتبيل بعد تضييق الحجاج عليه وتهديده له بغزو بلاده بألف ألف مقاتل، رأيناه يتخلى عن حماية ابن الأشعث وأمانه الذى أعطاه له، وذلك حفاظًا على مصلحة بلاده وسعيا وراء تحقيق الأمان لشعبه.

وهكذا يكون شأن كل لاجىء إلى غير بلاده، يكون عرضة للمساومات بين الدول بعضها ببعض .. فإذا اختلفت دولة مع أخرى كما اختلف رتبيل مع الحجاج استضافت نفرًا من الخارجين على هذه الدولة يعيشون فى حمايتها .. وتعطيهم حق اللجوء السياسى إليها، وتستخدمهم ورقة للضغط على دولتهم لتحقيق بعض المصالح من ورائهم أو تضمن عدم تعدى هذه الدولة عليها.

إن مثل هذا اللجوء لا يدوم طويلاً فسريعًا ما تتنكر الدول لضيوفها وتسلمهم إلى دولهم، تعقد لهم المحاكمات وتصدر عليهم الأحكام.

إن الدول دائما تبحث عن مصالحها ومصالح شعوبها .. فعلى كل من يحاول الإصلاح، وتحقيق المصالح لأوطانهم وشعوبهم أن يتواءموا مع شعوبهم ويتعايشوا مع حكومات بلادهم، ويغضوا الطرف عن الزلات الموجودة .. حتى يتمكنوا من الحفاظ على دعوتهم وحياتهم، بدلاً من الهجرة إلى بعض الدول التى تستخدمهم لصالحها، وتتاجر بهم فى الأسواق العالمية، وتساوم عليهم الحكومات.

لقد رأينا الكثير من الدول بعد أحداث ١١ سبتمبر تسارع بتسليم اللاجئين على أرضها .. وتتفانى فى تقديم المعلومات، بل وتجهيز الجيوش للحرب ضد ما يسمى بالإرهاب .. وما ذلك إلا جريًا وراء مصالحها، وخطبًا لود أمريكا ودفعًا لشرها عن بلادهم.

والخلاصة، أن اللاجئين السياسيين هم سلعة تباع وتشترى فى سوق السياسة الدولية .. وعلى كل لاجىء أن يدرك هذه الحقيقة جيدًا.

وبعـــد

فهل تحقق لابن الأشعث ما أراد؟

هل تمكن أهل العراق من خلع الحجاج أو عبد الملك بن مروان؟

هل توقف الظلم والقهر الذى خرجوا بسببه؟

لعل هذه الأسئلة لا تحتاج جوابًا، ومن أراد الجواب فليراجع القصة من بدايتها حتى النهاية ليقف على الدروس التى ذكرناها آنفًا.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وختامًا نقول..

رغم أن هذه التجارب التاريخية تتناول زمانًا غير زماننا، وظروفاً غير ظروفنا .. ووقائع تختلف فى بعض جزئياتها أو تتفق فى أخرى مع جزئيات واقعنا، لكن هذه الوقائع تحمل لنا أعظم الدروس وأسمى الخبرات.

فالعبرة عظيمة والفائدة جليلة، والحكمة باهرة فى هذا التاريخ العظيم، وهل هناك أفضل من تاريخنا لكى نأخذ منه العظة والعبرة؟

- إنها حكمة السنين تأتينا سهلة سلسة فى عدة صفحات.

- إنها عظة التاريخ الإسلامى لكل جيل بعد هذا الجيل العظيم من سلف أمتنا.

- هؤلاء العظماء من السلف قد جربوا .. وقديماً قال حكماؤهم : «سلوا المجرب فقد استطلع الحقيقة، ووقف على الدقيقة، وعلم مالم تعلموا».

- ونحن لن نستطيع أن نحيا حياتنا مرتين، أو نعيش أعمارنا مرتين .. عمرًا نجرب فيه ونخطىء، وعمرًا نتعلم فيه من أخطائنا[1].

- فما الحل فى هذه المعضلة؟

- الحل أن نستعير خبرات الآخرين ودروس حياتهم، فمن عاش مع دروس التاريخ طال عمره وازدادت خبرته .. ومن لم ينتفع بخبرة سنوات التاريخ لم يستفد شيئاً، واضطر أن يعمل بنظرية التجربة والخطأ، ويعمل بخبرة يوم بيوم .. وهذه نظرية مهلكة للأفراد والجماعات والدول.

وأين العمر الطويل؟! وأين لنا الإمكانيات المادية والبشرية التي تهلك بين الحين والآخر لنستطيع تعويضها بعد فقدها؟!

فلنضف أعمار المجربين إلى أعمارنا، وخبراتهم إلى خبراتنا وتجربتهم إلى تجربتنا، ولنعمل بقول النبى ﷺ «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[2].

---

(١) تسليط الأضواء .. على ما وقع فى الجهاد من أخطاء

(٢) رواه البخارى ومسلم

فمن لدغ من جحر مرتين، فقد ضاعت منه خبرة وحكمة وتجربة اللدغة الأولى .. ومن كان كذلك فهو مؤهل أن يخدع مرات ومرات من نفس الباب، ويلدغ مرات ومرات من نفس الجحر، والحكيم من وعظ بغيره، والمؤمن كيس فطن.

ويقاس على الحديث السابق، المثل القائل «لا تلدغ من جحر لدغ منه أخوك».. وكذلك: «لا تكرر أخطاء الآخرين».. ويقاس عليه :«ابدأ من حيث انتهى الآخرون، ولا تبدأ من حيث بدأوا».

إن التاريخ كله عبر وعظات، والبشرية مر من عمرها آلاف السنين .. ومن لم ينتفع بخبرة كل هذه السنوات، فلا يستحق أن يحيا أو أن يعيش .. وصدق المثل الذى يقول: «من لم ينتفع بخبرة آلاف السنين، لم يتجاوز زاده فى الحياة خبز يوم بيوم».

أى لم يستفد شيئا، وعليه أن يتخبط تحت نظرية التجربة والخطأ، ويعمل بخبرة يوم بيوم.

ومن أجمل ما قيل فى ذلك .. قول الخليفة المأمون: «ألذ الأشياء التنزه فى عقول المجربين».

فكيف يتنزه فى عقولهم؟! إنه يتعرف على حكمة عمرهم وخبرات حياتهم، وعمق تجاربهم فى الحياة، ولذلك يضيف أعمارهم إلى عمره، وخبراتهم إلى خبرته، وتجاربهم إلى تجاربه، ويسير على نور من ربه . وهداية من نبيه ﷺ وأسوة من سلفه الصالح.

إن من مبادىء الجماعة الإسلامية التى لم تنل حقها من الرعاية والعناية: «وتستوعب ما سبقها من تجارب».

لقد قصرنا فى العمل بهذه الفكرة العظيمة، وقد يكون من أسباب ذلك التقصير[1]:

(١) عدم انفتاحنا على الآخرين من الحركات الإسلامية فى سياق التنافس الشريف على العمل للدين.

(٢) الانشغال اليومى بالعمل الدائب الذى يحرم القائمين عليه من الراحة الذهنية والتفكير المتأنى.

(٣) تلك المواجهات المسلحة وغير المسلحة التى كانت مستعرة وبدرجات متفاوته فالعاملون للإسلام إذا لم يأخذوا الوقت الكافى للتفكير المتأنى، لم تسلم خطواتهم من الخطأ .. وأفضل

(١) راجع نهر الذكريات - المراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية - للمؤلف والشيخ أسامة حافظ.

شيء أن تفكر وأنت بعيد عن الصدام والصراع .. وتنظر إلى خريطته كاملة من بعيد متأملاً متفكرًا، ومن دون أن تنساق للخوض فى الأحداث.

لقد شرع القتال فى الإسلام «حتى لا تكون فتنة» فإذا أصبح القتال نفسه محدثًا للفتنة فى الدين، ومانعًا لتعبيد الناس لربهم، وصادًا للناس عن دعوة الحق، ومخوفًا للشباب من ثمرة دعوة نقية .. إذا صار كذلك، صار حرامًا شرعًا، ومن الواجب إيقافه ومنعه .. واعتبر منعه ووقفه من أعظم القربات إلى الله تعالى.

إن شريعة الإسلام السمحة منزهة أن تريق دماء أبنائها خاصة، والدماء عامة بغير هدف شرعى، أو مصلحة شرعية يقينية (غير ظنية) بينة (غير خفية) أعلى من مفسدة إراقتها.

إن القتال إذا لم تكن له ثمرة سوى سفك الدماء وزرع الأحقاد وتفتيت الأمة المسلمة وإضعافها أمام أعدائها الحقيقيين، وزرع الخوف فى نفوس الأمة وشبابها، وزرع الخوف من كل ما هو إسلامى، وتعطيل الدعوة إلى الله، والزج بالمسلمين فى السجون والمعتقلات .. إذا كان القتال بهذه الصورة فإنه يلحق بقتال الفتنة[1] .. والذى يجب منعه وإنهاؤه.

إن من أعظم قواعد الشريعة الإسلامية، ما نص عليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام، كل ما تقاصر عن تحقيق مطلوبه فهو باطل».

فما بالنا إذا كان القتال لم يتقاصر عن تحقيق مطلوبه فحسب وإنما ضيع كل المصالح وجلب كل المفاسد وفرق شمل الأمة وأطمع فيها الأعداء، إن مجرد القتل لا يدعو للفخر.. ولكن ما يدعو للفخر هو أن تقاتل فى سبيل الله، نصرة للدين، وخدمة للإسلام، واعزازًا للمسلمين، وخدمة ورفعة لأوطان الإسلام، ودفعًا للغاصبين والمعتدين عليها.

قد يفاجأ البعض بكلامنا هذا، وقد يتعجب منه، ويقول لماذا تقولون هذا الكلام الآن بالذات؟! .. ومن أين جئتم بهذا الكلام؟!

إن هذا الكلام هو محصلة مشوار طويل، وبحث عميق، ودراسة متأنية لأصول ديننا ومقاصد شريعتنا، إنه وقوف على الآيات. وجمع بين أطراف الأدلة، إنه حصاد قراءة واسعة فى تراث سلفنا

(١) راجع كتاب «نهر الذكريات».

الصالح، لم يحملنا عليه حرص ولا هوى وإنما حملنا عليه الشرع الحنيف، والبحث عن رضا الله تعالى وتحقيق مصالح ديننا وأمتنا.

كما أنه حصاد تجربة طويلة عشناها زادت على الربع قرن من الزمان تقلبنا فيها بين الشدة والرخاء، والعسر واليسر، والضيق والسعة، ونحن فى هذه الأحوال كلها راضون عن الله وعن قضاء الله، لم نتخل يومًا عن ديننا وشريعتنا .. نظرنا فيها إلى نتائج هذه المسيرة، وما فيها من أحداث وصراعات.

كما وقفنا على ما فات منا من مصالح ديننا وأمتنا، وما توالى على أوطاننا وديننا من مفاسد ومثالب، وقفنا نقلب أبصارنا فى هذه الصفحات من تجربتنا، ثم رجعنا نقلب صفحات قرآننا .. نقرأ آياته من جديد، فوقعت أبصارنا على آية عظيمة من آياته، فقرأنا:

«والصلح خير».

قرأناها فعرفنا أنه الحق، فحملنا أنفسنا عليه، ودعونا إخواننا إليه، ومددنا أيدينا بالورود لأوطاننا، فتقبلنا أهلونا وقومنا، وقلنا جميعًا «الصلح خير»

كما قلبنا فى جنبات واقعنا الذى نحياه وتحياه أمتنا والعالم من حولنا فرأيناه يلزمنا بالصلح، فما ازددنا بالصلح إلا تمسكًا، وما زادنا الواقع بهذا الصلح إلا يقينًا.

عرضنا ذلك على عقولنا فأقرت به عقولنا وشهدت بصحته قلوبنا .. فأطلقناها عن قناعة ذاتية ورغبة داخلية وإرادة حرة «والصلح خير».

وعرضنا ذلك على علماء عصرنا وفقهاء أمتنا، فبارك الجميع سعينا للصلح، فسرنا وراء فقهاء الأمة وعلمائها نقتفى أثر السابقين، ونزاحم بركبنا المعارضين نستنير برأيهم ونهتدى بعلمهم فقالوا لنا مثلما قال ربنا «والصلح خير».

فقلنا مع علمائنا ما قالوا، لتمضى الأوطان حاصدة ثمار هذا الصلح فيسود الأمن ويعلو البناء، ويخنس الأعداء وتفوت الفرص عل الحاقدين والحساد فـ «ياليت قومى يعلمون» بأنه «والصلح خير».

إننا ندعو جميع أبناء الحركة الإسلامية إلى هذه الآية العظيمة «والصلح خير»، فلقد صالح النبى ﷺ قومه .. صالحهم على بعض الضيم فكان تصديق الله لهذا الصلح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾.

فلنسارع جميعًا لملازمة الحق وهداية الخلق، ومصالحة قومنا ولنتذكر ما حيينا أننا:

- دعاة لا ولاة، وهداة لا جباة، هداة لا طغاة، دعاة لا قضاة.

- نحن أصحاب دعوة لا طلاب دعاية.

- إن مهمتنا تحبيب الحق إلى الخلق، وأن نعيش مع قول الرسول ﷺ: «لا يكون الرفق فى شىء إلا زانه وما نزع من شىء إلا شانه»[1].

سيقول البعض : ولكن ما هو الحل أمام غياب بعض أحكام الدين من مجتمعات المسلمين؟ وما يعج به المجتمع من فساد؟ وما غلب على الناس من عصيان؟ وما يحدث من مظالم وما نراه من عسف وهضم؟

- نقول له ..

أمامك الصبر الجميل «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل».

- الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه، فهو خير معين لك فى محنتك: «فاصبر صبرًا جميلاً».

- عليك بالصبر فهو نور لك فى دربك «الصبر ضياء»[2].

- عليك بالصبر فـ «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب».

- عليك بالصبر «فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرا» ولن يغلب عسر يسرين ، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه.

ونقول لكل من يبحث عن وسيلة لخير البلاد والعباد، وإعادة المفقود من الدين:

---

(١) رواه مسلم عن عائشه رضى الله عنها.

(٢) رواه مسلم عن الحارث بن عاصم الأشعرى - رضى الله عنه

هناك وسائل كثيرة، وبدائل عديدة هى أعظم أثرًا وأجدى نفعًا من الحرب والقتال.

هناك الدعوة إلى صحيح الدين بالحكمة والموعظة الحسنة .. دون إفراط أو تفريط .. دون غلو أو تقصير.

والمهم فى ذلك أن تكون الدعوة إلى الله موجودة وحية فى المجتمع .. وليس المهم أن يخرج الحق من لسانك أنت .. فمادام الهدى يخرج من لسان غيرك .. ومادام فى غيرك الكفاية فاحمد الله على ذلك .. فإن حرمت أنت من هذا الأمر فسلم أمرك لله، وادع الله أن يعطيك ثواب نيتك فى حب هداية الخلق إلى الحق «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين» وكن ممن قال عنهم رسول الله ﷺ «حبسهم العذر»[١] وعش مع قول الحكيم: «نية المرء خير من عمله».

- هناك بذل الإحسان للغير : «إنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين».

- هناك القيام على مصالح الناس والعيش للمجتمع «فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[٢]

- هناك العلم النافع الذى يحيى الموات ويهدى العصاة: فـ«إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير»[٣].

- هناك بذل النصيحة من غير تشهير ولا تعيير، فـ«الدين النصيحة»[٤].

- هناك المعاملة الحسنة والأخلاق الكريمة مع الناس «وخالق الناس بخلق حسن»[٥].

هناك العمل اليومى والإنتاج والبناء فى البلدان والأوطان وإعالة الأسر والأزواج، فـ«خياركم خياركم لنسائهم»[٦] «ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده»[٧].

---

(١) رواه مسلم عن جابر، والبخارى عن أنس واللفظ له.

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(٣) رواه الترمذى عن أبى أمامة، وقال حديث حسن.

(٤) رواه مسلم من حديث أبى أمامة تميم بن أوس الدارى

(٥) حديث حسن رواه الترمذى

(٦) رواه الترمذى عن أبى هريرة وقال حديث حسن صحيح.

(٧) رواه البخارى عن المقدام بن معدى يكرب

- هناك العمل الخيرى من خلال مؤسسات المجتمع المدنى، فـ «أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة»[1].

هناك تحبيب الناس فى الدين والخلق القويم .. وخير الناس من حبب الحق إلى الخلق ، ولم يبغض الخالق إلى عباده.

هناك إغاثة الملهوف ورعاية المحتاج، وإكرام حملة القرآن وأصحاب الفقه والحكمة فى المجتمع، فـ «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه، وإكرام ذى السلطان المقسط»[2].

إننا نقول لكل من يحاول الإصلاح، هناك البدائل الكثيرة التى هي أعظم أثرًا وأكثر نفعًا وأقوم سبيلا وأهدى طريقاً.

ولتحذر القتال لأن القتال والخروج على الحكومات ليس نزهة خلوية يتبختر فيها الثائرون ثم يعودون إلى بيوتهم.

إن الخروج على الحكومات ما هو إلا انتحار عسكرى واقتصادى وسياسى واجتماعى لكل الأطراف.

إنه دمار شامل للحركات الإسلامية. قبل أن يكون دمارًا للحكومات.

إنه إضعاف للأوطان، وتمزيق للأمة وإغراء لأعدائنا بنا، وتشويه لديننا وسماحة شرعنا، وتنفير للناس عنا وعن دعوة الإسلام العظيمة النقية.

هل هناك قائد عاقل أو حكيم يقدم على محو دعوته، وتدمير جماعته والسعى فى إبادة شعبه، وإضعاف وتفريق أمته؟!

.. ثم يعود السؤال من جديد:

- وماذا نفعل أمام المفقود من الشريعة؟!

---

(١) رواه البخارى عن سهل بن سعد

(٢) حديث حسن رواه أبو داود من حديث أبى موسى الأشعرى

نقـــول:

فلنحافظ على الموجود أولاً.

ثم نطلب المفقود بالحكمة والموعظة الحسنة .. بالصبر الجميل، والصفح الجميل، والصلح الجميل .. بالحلم والأناة، ومراعاة سنن الله فى خلقه.

- بالدعوة البصيرة، والعلم النافع.
- بتنشئة الناس على الدين والإسلام، والقدوة الحسنة والأخلاق النبيلة.
- بهداية الخلائق .. باللجوء إلى الله .. بالعبادة، بالذكر، بالشكر.
- بعدم المزايدة على المستحيل حتى لا نفقد الممكن.
- بالتكاتف مع الصالحين .. بالتآزر مع المصلحين
- بمدح كل ما هو حسن، حتى وإن صنعه أى أحد وإن كان غير مسلم.
- بتقبيح القبيح حتى وإن صدر من نفسك، أو جاء من خاصتك.
- بمعالجة الخطأ وتقويمه.
- بتأييد كل من يدعو إلى أى خير ويعمل بالخير .. وهم كثيرون والحمد لله.

وبعـــد..

- قال ﷺ:

«خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم .. وتدعون لهم ويدعون لكم»[1].

إنها صورة لمجتمع يسوده الحب والوئام والتواصل مع الحكام .. وفى مقابلها صورة لمجتمع آخر، تحرقه العداوة والخصام، واللعنة بين الأقوام.

صورة لمجتمع تسوده المحبة بين الحاكم والمحكوم، فالحاكم فيه كالأم الرؤوم والأب الرحيم .. والرعية هى الابن البار، والصديق الحميم، الذى يقابل أباه حبا بحب، ويبادل صديقه صفاءً بصفاء، الأب يحب أولاده، يحرص عليهم، يسهر لراحتهم، يشقى لسعادتهم .. فهو يحبهم ويدعو لهم .. والأبناء يحفظون المعروف، ويبادلون بالإحسان إحسانًا، ويقابلون العطاء بالعرفان، والإنعام بالوفاء .. فهم أحرار، والحر يرعى وداد لحظة، وينتمى لمن أفاده لفظة.

وكم أفاده أميره لفظات، وكم أعطاه من عمره لحظات، بل سنوات، وكم ناله منه من دعوات، فهو محل إحسانه، ومهبط عطائه، ومنزل إنعامه.

إنه مجتمع المحبة، التى تحمل الرعية أن تحوط الراعى بحبها، وتكلأه بعينها، وتحميه بمهجها، وتغذيه من دمائها، وتدفع عنه بصدورها، وترعاه أبدًا بنصحها، وترى ذلك حقًا عليها. «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»[2] فلا يهدأ لها بال، ولا تقر لها عين، ولا تطيب نفسًا إلا وهى تبذل للراعى نصحها، وتسقيه من ينبوع أمنها، وتسبغ عليه لباس أمانها.

فينام الراعى آمنا لا يخشى على نفسه بأسًا، ولا تقوم عليه حراسة من رعيته .. وكيف تقوم، وإنما تحرسه رعيته؟! تحرسه بنفسها، وتحرسه من نفسها ومن غيرها، بل تحرسه فى نفسها، فلا تورده موارد السوء، ولا تظنن به ظن السوء .. وإنما هو راعيها وإمامها.

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه

وفى هذا المجتمع النظيف، المفعم بالمحبه، المليء بالصدق، المنسوج من الشفافية، المدعوم بالولاء، بين المرء ونفسه. وبين المرء وغيره، لا يجد الكيد له موطنا، ولا تبصر العداوة أمامها طريقًا، ولا تقف الشحناء على أرض، ولا ترى المؤامرات لها إمارة تأتمر بها، ولا متنفسًا تنفث فيه سمومها.

فقد أحبت الرعية راعيها فأحبها، وصفت لراعيها فصفى لها، ونصحت الرعية لراعيها فانتصح بنصحها، قامت تدعو له فدعا لها.

أمنها فأمنته، وحفظها فحفظته، وأكرمها فأكرمته، ودعاها فلبته، تحركت الرعية كما تشاء فحماها الراعى بما يملك.

نادته فأحسنت النداء فانتفض يحدوه الفداء، سمع بكاء الصغار فقام يهدهد قلوبهم، يمسح بيده دموعهم، يربت على أكتافهم، يحمل لهم ولا يحمل عليهم، أضحكهم فما أبكاهم، وأراحهم وما أضناهم.

فارتاحت النفوس، وانشرحت الصدور، وانفرجت الأسارير، وخف الحمل عن الكواهل والظهور، وحقنت الدماء وعصمت الأموال، وحفظت الكرامة ورشد الفكر وتوقد الذهن، ونشط العقل، وسلمت الطرقات وعمت الخيرات، ونزلت البركات، ورتلت الآيات.

إنها صورة للراعى الذى تحبه رعيته ويحب رعيته، يدعو له الناس ويدعو هو للناس .. يحميها ويقاتل من أمامها «فالإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به»[1].

فهو فئة من لا فئة له، وولى من لا ولى له، لا تشق له عصا، ولا يعصى فى طاعة، تتوحد عليه القلوب، وتجتمع وراءه الصفوف، وتبذل له الأموال ويستجيب له الرجال، فيحدد لهم الهدف ويرسم لهم الخطط، ويوضح لهم الوسائل، ويتابع معهم الأعمال، ويجنى بهم الثمار .. فإن وجد حسنة عدها، أو خلة سدها.

حريص عليهم، رحيم بهم .. يفرض العطاء للشيخ الكبير والطفل الصغير .. ويبذل الخير لرعاياه وللغير بل لأسراب الطير .. فتحيا كل يوم سنة وتموت كل يوم بدعة، ويأمن الناس كل الناس، وتقوى الأمة ويعلو الإسلام ويعز المسلمون، ويخفى المتربصون، ويقهر المعتدون.

غاب عن المجتمع صوت السيوف ليعلو صوت الحوار، وتلاشى منطق القوة لتسود قوة المنطق، فإن بدر من الراعى تقصير ستروه أو قصور جبروه ومتى احتاج العون أعانوه، فإذا ما رأى من رعيته غفلة لم يرهقها من أمرها عسرًا ولم يجعل جزاءها خسرا.

بكاء الثكالى يحرق قلبه، وأنات المرضى تهد قوته، وتلوى الجياع يقلق مضجعه، وعرى العراة يمزق جسده، وتهدم بيت لرعيته هدم لبنيانه وراحته.

يدفع عنهم البلاء، ويرفع العناء، ويحارب الغلاء .. ينشر السكينة ويبعث الطمأنينة، ويذهب القلق، ويبدد خوفهم، ويؤمن روعهم، وينفث فى روعهم: لن تُراعو لن تُراعوا.

فيأوى إليه الطريد، ويهتدى به الحائر، ويأنس به الغريب ويطمع فيه الفقير، ويحفظ قدره الكبير.

إنها روح المحبة والثقة التى تولد البذل والأمن والتفانى من الجميع وللجميع.

فكيف حين ترفع المحبة، وتسود العداوة والبغضاء، وتشحن النفوس وتسوء الظنون، وتنتشر الجواسيس، وتكثر الوشاية، وتتقطع الأواصر، وتتلاشى الأهداف، وتضل الخطط، ويتوقف الإصلاح، ويحل الكيد والتآمر.

فلا يسمع لداعى الحكمة، ولا يؤبه بصوت العقل، ولا يحس أحد بوخز الضمير، فلا ينصت لشكاية، وتوصد الأبواب وتقام الحواجز وتقام الحجب بين الراعى ورعيته، فهم فى واد وهو فى وادٍ آخر.

وتكثر الشرط، وينطق السوط، ويغيب البناء، وتهدر الأموال، ويسود منطق القوة، وتذبل المبادىء، وتموت القيم، وتذهب الأخلاق، وتنزوى الضمائر.

ويتبارى الطرفان فى سباق محموم، إما غالب أو مغلوب، وكلاهما مهزوم، وتدوى التفجيرات وتنهار العمارات، فيهدر دم الراعى ويموت، أو يتمكن منهم فلا يرحمهم، ويتحكم فيهم فيرجمهم.

والناس فى الأرض يتيهون، وتضيع الأمة وتقع فريسة لسيفين، سيف الراعى الحانق، أو سيف الشعب الأبق .. ويحتدم الصراع ويحل البوار.

ولا يلبث الأمر طويلاً حتى تنهش الأمة سيوف أخر، من يهود على الحدود رابضين، أو صليبيين فى البحار مرابطين، أو شيوعيين بالله ملحدين، أو منافقين متآمرين.

وتسقط أمتنا صرعى ضحية معارك لا طائل من ورائها، وإنما يحصد العدو ثمارها بعدما بذر بذورها وسقى زرعها .. ونرى الأمة تسير أسيرة وتتكلم وهى مكلومة، أثخنتها الجراح.

أرأيتم عندما يغيب الحب، وتدب العداوة بين الراعى والرعية، ترى لماذا قتل عثمان - رضى الله عنه - وتسور الثوار داره، ولماذا سال دمه على صفحات المصحف؟

أرأيت عليا - رضى الله عنه- ولماذا قتلوه وهو خارج ليصلى فى المحراب؟!

- لماذا ضربت الكعبة بالمدافع بعدما احتمى بها ابن الزبير- رضى الله عنه-؟ ولماذا صلبوه؟!

- ألم نقل إنه صراع محموم، فإما أن يُقتل الراعى، وإما أن يسبق سيفه فيرهق الظهور ويحز الرقاب، ويبتم الأطفال، ويرمل النساء، ولا يراعى حرمات البيوت.

وإذا بدم الحسين - رضى الله عنه - يراق، وجسده تسحقه الخيول، فكم من الحكام حصدتهم سيوف رعاياهم، وكم من الرعايا سحقتها خيول الراعى.

وتبقى أمة الإسلام أمة كسيرة الجناح، تعطلت مصالحها، وتبددت خيراتها، واختلفت صفوفها، وتمزقت وشائجها، وتباعدت أقطارها .. وتحرش الجميع بالجميع، ولفهم الخوف والهلع، وروعهم الروع والفزع.

وأقيمت المتاريس، ونصبت الكمائن، ورفعت الرحمة عن الأمة. وخَفت صوت الداعى.

- أليس هذا هو حصاد العدواة بين الحاكم والرعية؟

- أليست هذه هى الثمار المرة للصراع بين الحاكم والمحكومين؟

- نبئونى بعلم إن كنتم صادقين.

- وقد يقول قائل: إنكم تتكلمون فى غير زماننا، وتقولون فى غير حكامنا، ولعلكم تقصدون حكامًا سابقين، وصفتموهم بالرحمة والشفقة، والحرص على الشرع وعلى الناس .. أما حكام زماننا، ألا ترون ما نحن فيه؟!

ألا ترون ما أصابنا؟!

- ألا ترون ما صار إليه حال البلاد والعباد؟

- ألا ترون أننا أصبحنا فى ذيل الأمم؟!

- ألا ترون .. ؟ ألا ترون .. ؟ ألا ترون...؟

- ثم بعد ذلك تسألنا التصافى معهم وتنشدنا الثقة!!

.. لكننا نقول: نعم هناك مفقود من الدين، ولكن هناك موجود، والموجود أعظم من المفقود، نعم هناك تقصير، وهل يخلو زمان من تفريط؟! .. والمهم أن نعالج التقصير بحكمة وأناة، خاصة ونحن نرى ما حولنا من أحداث، وما يمارس علينا من ضغوط.

وكم من محاولات تبذل للتأثير على دولنا، وتغريب هويتنا، وتبديل ثقافتنا، وكم يضرب حولنا من حصار سياسى تارة، واقتصادى أخرى، وعسكرى ثالثة، ثم فى الختام يكون الغزو والاحتلال.

ألم نسمع عن تفتيش قصور بغداد ثم سكناها من قبل الاحتلال؟ ألم نقرأ عن تسريح جيوش كاملة وتدمير أسلحتها. بل والاستيلاء عليها ونقلها إلى بلاد أخرى/ ألم نسمع كل ذلك، ونرى كل ذلك؟

إننا لا نقول ذلك محاباة لأحد، ولكننا نقوله وصفًا للواقع فقط.

فلا بد لكى تتمكن بلادنا من النهوض أن نسعى جهدنا للمواءمة بين الموجود وبين المفروض، وأن نقارب بين المتاح والواجب، وأن نوائم بين الواجب والواقع - لئلا نفقد ما عندنا، ولا يتحقق قصدنا، ولا نبلغ هدفنا، فيضيع منا الموجود، ولا يصل إلينا المفقود.

- ليس الحل أن يسود منطق القوة، ولكن نفسح المجال لقوة المنطق، والمحاورة الهادفة، والمناقشة الهادئة، والصبر الجميل، والنفس الطويل.

نتحاور بأنفسنا، أو من خلال ذوى الوجاهة والرأى والخبرة من أمتنا، ليصل صوتنا لمن نريد، ويتجلى هدفنا ويتضح فكرنا.

نتعاون فيما بيننا من اتفاق وهو كثير، ونتشاور فيما قد يوجد من خلاف، ولنلزم العقل والحكمة، والإحسان والإنصاف.

وما لا يدرك كله لا يترك جله، وما عجزنا عنه اليوم قد نبلغه غدًا، وما وسعنا التسامح فيه تسامحنا وتصافحنا، وإن لم نأت بجديد لا نفقد ما بأيدينا، وإن لم تتيسر الأمور لم تدركنا العسرة.

فإن وظيفة الدعاة الانتقال بالناس من حال إلى حالٍ أفضل مما هم عليها، فإن لم يرتق معهم البشر ويزدادوا إيمانا مع إيمانهم، لم يزدادوا توغلاً فى الشر والعصيان، ولن يكون ذلك إلا بالحوار والمشاورة.

ونحن نعرف أنه متى قامت الريح تقصفت الأشجار وإذا سكنت استوت على عيدانها السنابل الضعيفة.

فلماذا لا تهدأ الأوضاع حتى تستوى سنابل الخير والبر وتؤتى أكلها بإذن ربها؟

ولماذا لا نتقى الريح لئلا تنطفىء بأيدينا الشموع، ويضيع من خطونا الطريق؟

هذا وإلا صارت سنابلها هشيمًا، وقلاعنا ترابًا، وهدفنا سرابًا، وانقلبت شموعنا ظلامًا ودياجير، وربما لفحنا الطريق.

.. ودعنا نسأل: متى تعمل آلات الإنتاج، ومصانع التنمية والبناء؟ إنها لن تعمل إلا إذا توقفت دانات المدافع، لأن دانات المدافع تستنزف الثروات وتبدد الأموال، وتخرب الصناعات.

.. ودعنا نسأل: متى يسمع صوت المؤذن على المآذن، وصوت الدعاة على المنابر؟

إنَّه لن يسمع إلا إذا سكن صوت الرصاص، لأن أزيز الطائرات، وهدير المدافع، وصرخات الرصاص، وعويل النساء والأطفال، أقوى من صوت المؤذنين، ودعاء الداعين، فمتى أغمد السلاح، استمع الناس لنداء الصلاة، حى على الفلاح.

.. ودعنا نسأل: متى تحترم المبادىء. وتقدر القيم، وتلتزم القوانين؟

- لن يكون ذلك، ولن يحدث شىء من ذلك، إلا إذا توقف قانون الحرب وشريعة الافتراس، وسياسة الناب والمخلب.

.. ودعنا نسأل: متى يشاد البنيان ويسود العمران؟

– لن يعلو بناء ولن يشاد صرح إلا إذا غابت التفجيرات .. وتهدمت الخنادق، وانعدم التخريب والتفجير، وتكاتفت السواعد، وتشاورت العقول.

ومرة أخرى نسأل : متى تعود البسمة، وتضاء الأنوار، وتغمر الفرحة كل دار؟

– لن يحدث ذلك حتى تتوقف الدموع، وتبرد العيون، ويغيب الصراخ والنحيب.

.. هذه أسئلة وإجابات عرفتها أمتنا قديمًا، فعاشت عصورًا من الأمان والاستقرار، وتلقتها بالقبول، فعاشت حقيقة الاستقلال، وقابلتها بالتسليم فجنت ثمار السلام، وعاشت حقبًا من المحبة والوئام بين الرعية والراعى، بين المحكومين والحكام.

ومرت بها فترات غابت عن هذه المعانى أو ضعفت فيها فسادت وتردت الأحوال، وانهالت عليها الأهوال، وعم الخراب والاحتراب، فاستنفذت موارد وثروات، وهدمت مصانع وبيوتات، وضاعت حقوق واهدرت كرامات.

قتل جنود وشباب، وغابت التحيات، وحلت اللعنات، وانتهكت الأعراض وسلبت الأرض.

.. ووقفنا نسأل:

. . مالك يا أمتنا؟ وماذا دهاك؟

كممت الأفواه ، وكثرت الملاهى، وغاب الأخيار وعلا الأشرار.

. مالك يا أمتنا؟ وماذا دهاك؟

ولما كان التاريخ مخزن العبر، ومن وعاه فى صدره أضاف أعمارًا إلى عمره. قلبنا صفحات أمتنا لنجد أقوامًا صالحين أرادوا الإصلاح لدينهم وأوطانهم، لكنهم خرجوا بالسلاح على حكوماتهم وأعلنوا القتال ضد حكامهم .. فماذا رأينا؟!

– رأينا الحسين – رضى الله عنه – صريعًا تدوسه الخيول.

- رأينا ابن الزبير - رضى الله عنه - مصلوبًا وقداشتعلت النيران بثياب الكعبة، وضربت الكعبة بالأحجار.

- ورأينا النساء تهتك أعراضهن فى طرقات المدينة.

- ورأينا زيد بن على وقد ذبحوه، وعبد الرحمن بن الأشعث يلقى بنفسه من شاهق.

- ورأينا ابن الزبير - رضى الله عنه - يقتل أخاه.

- ورأينا محمد بن عبد الله بن حسن قد حزوا رأسه وهو لم يزل حيًا.

- رأيناهم وقد ضاقت عليهم الأرض فلجأ بعضهم إلى بلاد العجم طالباً الأمان، فباعوهم مقابل مصالحهم.

رأيناهم وقد قتل فى أحد معاركهم مائة وخمسون ألفًا من المسلمين منهم سادات المهاجرين والأنصار، وخيار التابعين أمثال سعيد بن جبير.

ورأينا نساء بيت النبوة يسعى أراذل الناس فى محاولة سبيهن.

- رأينا الكثير مما لم نقدر على ذكره.

.. قلبنا هذه الصفحات

- فرأيناها ثمارًا مرة للصراع والصدام بين الشعوب والحكام ليس فيها إلا العلقم.

- لعل قائلاً يقول: كان هذا قديمًا وقد تغيرت الأيام وتبدلت الأحوال.

ولكننا نجيب: إنه التاريخ يعيد نفسه، وحلقات فى سلسلة تجر أخواتها ولتحول أبصارنا عن الماضى قليلاً نبحث فى عصرنا الحديث، لنرى ماذا جنت الحركة من صدامها، وماذا حققت من أهدافها؟

.. وكما قلبنا صفحة الماضى، قلبنا أيضًا صفحة الحاضر، والذى لا يزال ماثلا أمام أعيننا، فإن كنا نسينا الماضى أو جهلنا أحداثه، فإن الحاضر نلمسه الآن بأيدينا، نراه بأبصارنا، ندركه بفكرنا

وعقلنا، بدلائله التى ظهرت فى غدونا ورواحنا، ببصماته التى طبعها على قلوبنا وعقولنا وأوضاع بلادنا.

.. قلبنا صفحة الحاضر لنرى الصراع الدامى بين الحركات الإسلامية وبين حكومات بلادها.

قلبناها فرأينا ويا لهول ما رأينا:

- رأينا حماة وقد أبيدت عن آخرها.

- رأينا المسجد الحرام يدوى فيه الرصاص، ويتساقط فيه القتلى ويُحتجز فيه المصلون أيام جهيمان.

- رأينا التفجيرات تحدث فى موسم الحج والسيارات تحترق فى مكة والمظاهرات تفسد على الناس مناسكهم.

- رأينا أكثر من سبعين ألف قتيل فى الجزائر وآلاف أخرى من الجرحى.

- رأينا حصار الدعوة وقرارات حل جمعية الأخوان المسلمين وحظر نشاطها ومصادرة أموالها وإعدام واغتيال قادتها.

- رأينا المحاكمات العسكرية والمدنية وصدور الأحكام بالإعدام أو المؤبد.

- رأينا آلاف الشباب وقد حشدوا إلى السجن فلبثوا فى سجنهم سنين عددا.

- رأينا تشويهًا للدعوة وسبًا للدعاة، وتبادل الاتهامات بين الفريقين، وشيوع روح التحفز والتحرش بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد واللغة الواحدة.

رأينا بيوتا قد هدمت وأسرًا قد شردت، وأموالاً قد أهدرت، ونفوسًا قد أزهقت.

- رأينا عدوًا يتحرش بنا خارج الحدود يريد أن يسلب الأرض ويهتك العرض، ويستنزف الثروات.

رأينا هذه المشاهد الفظيعة.. فوقفنا نبكى أمتنا وما حل بها من نكبات، وما أصابها من تخلف وفقر وضعف.

وتذكرنا صفحة أخرى جميلة نظرنا فيها فوجدناها تبتسم وهى تقول لنا «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتدعون لهم ويدعون لكم».

فرفعناها فوق رؤوسنا، وحملناها بين قلوبنا، وقلنا تعالوا «ننسى الماضى بآلامه، والحاضر بجراحه، ونمضى سوياً للعناق والوفاق، للحوار بدلاً من الشجار، للسماح لا للسلاح».